

سومرست موم

ليزا فتاة لامبيث

رواية

ترجمة: سامح الجباس


سومرست موم
ليزا فتاة لامبيث
رواية
ترجمة: سامح الجباس

ليزا فتاة لامبيث

سومرست موم

◆ المؤلف: سومرست موم
◆ العنوان : ليزا فتاة لامبيث
◆ ترجمة : سامح الجباس
◆ الطبعة : الأولى 2021
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠٢١ / ٩٥٨٠
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 303 - 9

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

سومرست موم

ليزا فتاة لامبيث

ترجمة

سامح الجباس

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

موم، سومرست.

سومرست موم : ليزا فتاة لامبيث

ترجمة: سامح الجباس

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2021

224 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9580 / 2021

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 303 – 9

1 – العنوان

2 – موم، سومرست

ملاحظة من المترجم:

لامبيث:

لامبيث هي منطقة إدارية تقع وسط لندن الكبرى وتقع ضمن منطقة مدينة لندن. أُنشئت المنطقة سنة ١٩٦٥ عبر ضم كل من أحياء «لامبيث» و«كلابهام» و«ستريتهام» والتي كانت جزءًا من «واندسوورث».

وهذه هي أول رواية كتبها سومرست موم، وكان في الثالثة والعشرين من عمره، ونُشرت عام ١٨٩٧.

الفصل الأول

كانت الظهيرة من يوم السبت الأول من شهر أغسطس، وكانت حارقة حارة طوال اليوم، وقد بدت السماء خالية من السحب، وأخذت شمس الصيف تصب أشعتها الحامية على البيوت؛ لذلك كانت غرف الأدوار العليا كأنها أفران. ولكن الآن مع اقتراب المساء بدأت النسمات تلطف الجو، وكل شخص في شارع «فيرستريت» كان خارجًا من باب منزله. هذا الشارع «فيرستريت» في حي «لامبيث» المتفرع من طريق «وستمنسر بريدج»، قصير مستقيم،. يقوم على كل جانب من جانبيه أربعون بيتًا، وهذه الثمانون بيتًا تبدو متشابهة كما تشبه حبوب البازلاء حبوب البازلاء الأخرى، أو كما تشبه الفتيات الصغيرات، الفتيات الصغيرات الأخرى.. فكل البيوت جديدة، وكل بيت منها مكون من ثلاثة طوابق من الطوب الرمادي الحقير، منحدرة السقف، مسطح الواجهة، وليس له شرفات أو نوافذ خارجة تكسر استقامة الخط من طرف الشارع إلى الطرف الآخر.

فى ظهيرة هذا السبت كان الشارع ممتلئًا بالحياة، لم يكن مسموحًا لوسائل المواصلات باختراق «فيرستريت» والمساحة المسفلتة بين الأرصفة كانت ممنوحة للأطفال، كثير من ألعاب الكروكيت كان يلعبها الأولاد المتحمسون العنيفون، باستخدام الجوارب القديمة المحشوة بالقطن، والمعاطف كبوابات، وكرات التنس القديمة، أو حزم من الخرقات مربوطة معًا ككرة، وفى الأغلب أيدي المكانس القديمة كمضارب،كانت البوابة كبيرة للغاية بينما المضرب صغيرًا جدًّا؛ ولذلك كان على الشخص أن ينحني دائمًا عندما يسخن القتال، وكثيرًا ما كان اللعب يتوقف عندما يرفض المدافع تمامًا أن يغادر الملعب بينما الرامي يصر على استئناف اللعب.

أما الفتيات الصغيرات فقد كن أكثر سلامًا، وألعابهن الرئيسة هي نط الحبل، ولكن الأمر بينهن لم يكن يخلو من كلمة عتاب بسيطة حينًا، عندما يلتف الحبل على قدمي إحداهن إذا لم تقفز عاليًا بما يكفي، أو إذا أسرعت إحدى الممسكات بطرفي الحبل في دورانه.

أما أقل الجميع حظًّا فكانوا الأطفال الصغار جدًّا؛ ذلك لأن السماء لم تمطر منذ أسابيع، مما جعل الشارع جافًّا ونظيفًا كمحكمة مغطاة، لا أثر فيه للأوحال التي تعوَّدوا الغوص فيها، ولهذا كانوا في ذلك الأصيل جالسين في أماكن متفرقة من الطريق، وقد بدوا بائسين كأنهم شعراء. كان عدد الأطفال استثنائيًّا، كانوا ممددين في كل مكان، على الأرصفة، حول الأبواب، ومتعلقين بتنورات أماتهم.

أما الكبار فكانوا يتجمعون عند أبواب المنازل المفتوحة، فترى هنا امرأتين جالستين على عتبة أحد الأبواب، واثنتين أو ثلاثة جالسات فوق مقاعد خشبية على جانبي باب آخر، وترى بعضهن يحملن أطفالًا في سن الرضاعة، ومعظمهن تُظهرن علامات واضحة أن موضوع الحاضر من رعاية الأمومة سيكون قريبًا مع وصول جديد.

أما الرجال، وهم أقل عددًا من النساء، فتراهم وقد أسندوا ظهورهم إلى جدران البيوت، أو جلسوا على قواعد النوافذ بالطوابق الأرضية، وأخذوا يدخنون. إنه موسم الركود في فيرستريت، ولولا أن كان هناك أطفال قد وُلدوا للتو أو على وشك أن يولدوا، أو أن هناك جريمة مناسبة في بيت جديد مجاور لما وجدوا ما يتحدثون عنه.

كانت المجموعات الصغيرة تتكلم بهدوء، يناقشون الفظاعات أو المزايا للقابلات المحليات، مقارنين ظروف الحالات المتعسرة، وقالت إحدى السيدات لأخرى:

- يبدو أن ميعاد وضعكِ قد اقترب جدًّا يا بولي.

فأجابت بولي قائلة:

- أوه، أعتقد أنه لا يزال أمامي شهران.

وتدخلت سيدة ثالثة فقالت لبولي:

- حسنًا، إن منظركِ يدل على أن المدة الباقية على وضعكِ أقل من شهرين.

وقالت لها امرأة شجاعة عجوز، امرأة ذات أهمية كبيرة:

- أرجو أن تضعي هذه المرة في سهولة ويسر يا عزيزتي.

قال زوج بولي ملاحظة:

- إن بولي تؤكد أنها ستمتنع عن الحمل مرة أخرى بعد أن تضع هذه المرة بسلام.

فقالت السيدة العجوز الشجاعة التي كانت في هذا العمل متفاخرة أكثر من كونها خبيرة:

- آه، إن كلهن يقلن هذا، ليباركك الرب، ولكنهن لا يعنينه.

- أما أنا، فلي ثلاثة أطفال، ولن أطلب المزيد بعد هذه المرة، هذا ما أقوله.

وقالت بولي:

- عندك حق يا عزيزتي.

ثم التفتت إلى زوجها تقول له:

- كَلِمَتي هي، سوف أطالبك بالطلاق يا هاري إذا طلبت المزيد من الأطفال.

وفى تلك اللحظة، بدا في أول الشارع عازف البيانولا المتجوِّل، فما أن رآه بعض السكان حتى هتف نصف دستة منهم بصوت واحد:

- مرحى مرحى!.. ها هي البيانولا.

وكان عازف البيانولا رجلًا إيطالي الجنسية، تمتد فوق جبينه خصلة من الشعر الأسود، ويغطي شفتيه شارب مهيب ضخم، وبعد أن اختار مكانًا مناسبًا من الشارع، وضع البيانو عن ظهره- بفك السيور الجلدية التي كان معلقًا بها- فوق حامله الخشبي، وأزاح قبعته الصوفية الكبيرة إلى جانب رأسه، ثم بدأ يدير مقبض البيانو، كانت نغمات عذبة. وفى أقل من دقيقة تحلَّق حوله عدد من السكان ينصتون، وكان أكثرهم من الشبان والعوانس، أما بالنسبة للسيدات المتزوجات، فلم يكن أبدًا في حالة مناسبة للرقص، ولذلك رغبوا عن إزعاج أنفسهم ووقفن حول البيانولا.

وبعد لحظات من التردد، قالت فتاة لزميلة لها:

- هيا يا فلوري.. أنا وأنتِ لسنا خجلتين، سوف نبدأ معًا الرقص، ولنشعلها!

واحتضنت كلتاهما الأخرى وقد اتخذت إحداهما هيئة الشاب والأخرى هيئة السيدة، وما هي إلا لحظات حتى انضم إليهما ثلاثة أو أربعة أزواج من الفتيات، وأخذ الجميع يرقصن الفالس في خطوات رشيقة، وأمسكن بأنفسهن في استقامة تامة، وبجو مثل قبر من الكرامة الذي كان مؤثرًا تمامًا، تنزلقن ببطء جاعلات من خطواتهن في أقصى دقتها آخذين في اعتبارهن اللياقة الكافية وكأنهن في أفخم حلبات الرقص.

وبعد لحظات بدأ الرجال في التململ من أجل دورهم، و تماسك شابان منهم، وراحا يشتركان في الرقص في هذه الموضة المتفق عليه، واتسعت دائرة الفالس مع جاذبية المُحكمين، ثم صاح بعض الواقفين فجأة:

- هذه ليزا!

والتفت الكثير من أعضاء المجموعات ثم هتفوا:

- أوه! انظروا إلى ليزا.

وتوقف الراقصون لينظروا بدورهم، وكان عازف البيانولا قد بلغ نهاية اللحن، فتوقف بدوره وراح ينظر إلى ما أثار الاهتمام، بينما عاد بعضهم يصيح:

- أوه!.. ليزا.. ليزا.. انظروا إلى ليزا!

وكانت ليزا، فتاة في حوالي الثامنة عشرة من عمرها، سوداء العينين، مع أهداب كثيفة، تتهدل خصلات شعرها المموج على جبينها حتى تلامس حاجبيها. وكانت ترتدي ثوبًا من الحرير البنفسجي محلى بالمخمل، وعلى رأسها قبعة سوداء واسعة الإطار، مزينة بالريش الملون.

وكانت كل جماعة من الواقفين أمام البيوت تقول عندما تمر ليزا أمامها:

- ما أجمل وأفخر ما ترتدي ليزا!

أما الشبان فكان بعضهم يهمس لبعض:

- إنها أجمل فتيات الشارع وأكثرهن أناقة! إنها ترتدي دائمًا ملابس من أحدث موضة.

ويبدو أن ليزا نفسها كانت تشعر بالتأثير الذي أحدثته، ومن هنا أقامت ظهرها، ورفعت رأسها، وسارت تخطو في فتنة وهي تهز جسمها من جانب

إلى جانب، وكأنها ملكة، وكأن كل هذا المكان ملك لها.

وقال أحد الشبان لزميل له:

- هل اشتريت الشارع لنفسك يا بيل؟

وضج بعض نصف دستة من الواقفين بالضحك كما لو كان بالإلهام، ثم صاح أحدهم:

- طرقت قلبي في طريق «أولد كِنت».

والتقطت جماعة أخرى من الشبان هذه العبارة، وراحت ترددها بصوت موسيقى منغم:

- طرقت قلبي في طريق «أولد كِنت».

«يااا.. آه.. طرقت قلبي في طريق «أولد كِنت».

وإذا بالشارع كله يهتف لليزا ويردد العبارة في ضحك ومرح وعبث، وإذا بأحد الشبان يرسل من شفتيه صفيرًا عاليًا، تردد صدى هذا الصفير في جنبات الشارع ثم ارتدّ من جديد، ثم يصيح:

- مرة أخرى.. إنه طلب خاص.

- « أوه، ليزا، أوه، أوه!».

ويتعالى الصفير من كل جانب، وتتعالى أصواتهم مرددين الأنشودة المرتجلة: «طرقت قلبى في طريق «أولد كِنت»».

بينما تمضي ليزا مرفوعة الرأس، كالبطل القاهر، باسمة الوجه لهذه الضجة التي أثارتها، وكانت تمشي الهوينى، ساحرة، وسط الصخب، وكانت تمسك بمرفقيها و تميل برأسها أمام كل جماعة، ثم تقول وهي تغمز بعينيها:

- إنها حفلة صاخبة!

«طرقت قلبي في طريق «أولد كِنت».

وحين اقتربت من المجموعة التي حول عازف البيانولا، صاحت بها إحدى الفتيات:

- أهذا فستان جديد يا ليزا؟

فقالت لها ليزا:

- طبعًا جديد، هل ترينه يشبه فستاني القديم؟

ثم سألتها صديقة أخرى بحسد:

- من أين جئت به يا ليزا؟

وأجابتها ليزا بازدراء:

- التقطته من الشارع! بالطبع!

وقال أحد الرجال ليغيظها:

- أظن أني رأيت هذا الثوب في واجهة محل الرهونات بالشارع العام.

- إنه هو! ولكن ماذا كنت تفعل هناك؟ هل كنت ترهن قميصك أم بنطلونك؟

- نعم، أنا على كل حال لم أحاول مثلكِ شراء فستان مستعمل مرهون!

فهتفت ليزا في سخط:

- يا ديوث! سأمسح بك البلاط إذا تكلمت معي. بل اشتريت قماشه من أرقى متاجر «الوست إند»، ألم أفعل؟ وفصلته عند خياطة المحكمة!.. حسنًا، إن مزحتك ستجف يا صاحب البطن الرخو!

- ديوثة!

كان هذا هو الرد.

ثم تنبهت ليزا من انشغالها بفستانها وبالتعليق الذي أثارها حتى إنها لم تلاحظ عازف البيانولا، فهتفت بصوتها المرح:

- أووه! هيا إلى الرقص يا فتيات.

هتفت حالما رأته، ثم أردفت قائلة لإحدى صديقاتها:

- تعالي يا سالي نرقص معًا!

والتفتت إلى عازف البيانو وصاحت:

- هيا.. اعزف أيها الديك العجوز!

وشرع الرجل يدير مقبض البيانولا، فانسابت منه نغمات جديدة راقصة، هي لحن «إنتر ميزو» من أوبرا «كافاللييريا» وحذت الفتيات حذو ليزا، فاختارت

كل واحدة منهن زميلة تراقصها، وسرعان ما كان الجميع يدورون في حلقة مفرغة وهم يرقصون الفالس، بنفس الخطوات الرشيقة الوقور كما فعلوا من قبل.

وبدت ليزا في رقصها تفوقهم جميعًا، واذا كان الآخرون يبدون كملكات فخمة، فإن ليزا كانت تبدو كإمبراطورة أفخم. إن الجاذبية والكرامة التي كانت ترقص بها الفالس كانت شيئًا مروعًا، وكأنها ملكة منتخبة للجمال والمرح، لو أن هناك مقياسًا مناسبًا لمعالجة مقبرة العرض الأول للراقصين أو في جنازة الفكاهي المحترف. والحشائش التي تقف عليها، الكسل في عينيها، ابتسامة الازدراء على شفتيها، استدارة اليد الرائعة، والانحناء اللذيذ لقدمها، فإنك ستشعر بلا شك بأن لها الحق في الاستبداد بفيرستريت.

وفجأة توقفت عن الرقص وتخلصت من زميلتها وهي تقول:

- أوه! هذه النغمات بطيئة أكثر مما أريد، إنها تصيبني بالمرض!

ليس هذا هو ما قالته بالضبط، ولكنه من المستحيل دائمًا أن نعطي نفس الكلمات المنقحة التي تقولها ليزا والشخصيات الأخرى في القصة، فإن القارئ عندئذ يتوسل بأفكاره ليزيل القطعة المعيبة من الحوار.

قالت مرة أخرى:

- إنها بطيئة ومملة، إنها تصيبني بالمرض.. لنحصل على لحن أكثر حياة من هذا الفالس. تعالي هنا يا سالي حتى أجعل هؤلاء الناس يرون رقصة الفستان كيف تكون!

وتوقف جميع الراقصين.

- تتحدثون عن الباليه في كانتربري وجنوب لندن، انتظروا حتى تشاهدوا باليه فيرستريت، لامبيث.. لقد طرقت قلبي!

وتقدمت نحو عازف البيانولا، وقالت له:

- الآن أيها الإيطالي العجوز، عليك أن تسمعنا لحنًا قويًّا سريع النغمات فياضًا بالحياة.. هكذا...

ثم هوت بكفيها الدقيقتين على قبعة الرجل فكبستها على رأسه حتى لامست حافتها العريضة أذنيه، وابتسم الإيطالي ابتسامة واسعة من الأذن إلى الأذن ثم أمسك بالمقبض، وراح يعزف اللحن الذي طلبته.

وتراجع الشبان تاركين حلبة الرقص للفتيات، على نغمات اللحن القوي السريع، وكانت كل فتاة تمسك زميلتها في الرقص بإحدى يديها، تقفن وجهًا لوجه، بينما ترفع باليد الثانية طرف فستانها الطويل الواسع الذيل حتى تكشف عن جزء من ساقيها الجميلتين.

ورغم سرعة النغمات وقوتها وتعقيدها، كانت ليزا محقة، لم يكن قد فعلن هذا من قبل في تدريبات الباليه.

ولكن كانت ليزا، بلا شك، أبرعهن وأرشقهن في هذه الرقصة أيضًا؛ إذ كانت ترقص بروحها ومشاعرها وكل ذرة في كيانها، لا بجسدها فقط. ولو أن البهجة تجسدت في تلك اللحظات، لكانت هي ليزا وهي ترقص. بالتدريج توقفت الأزواج الأخرى عن الرقص تاركين ليزا وسالي وحدهما.

كانت خطواتهما حريصة، تراقب كل منهما خطوات الأخرى، وإذا أديا حركات تبادلية أدياها غريزيًّا لذلك كان الرقص كله متماثلًا.

ولكن سالي، لم تستطع أن تستمر طويلًا، فتوقفت بدورها وغمغمت وهي تنفخ:

- كفى.. لقد تعبت.

وعندئذ صاحت دستة من المتفرجين عندما توقفت سالي:

- استمرى أنتِ يا ليزا.

ولم يبد عليها أنها سمعت هذه العبارة، ولكنها ظلت ترقص وحدها، تنساب حينًا كأنها تنزلق على أرض ملساء، وتدور حول نفسها أحيانًا وقد رفعت أطراف ثوبها في حركة رشيقة، فاذا انتقلت النغمات إلى إيقاع جديد، غيرت هي طريقة رقصها.

وتحركت قدماها بسرعة أكبر، حتى كادتا لا تلمسان الأرض، وكلما شعرت بإعجاب المتفرجين ودهشتهم، ضاعفت من رشاقتها، ومن تلوّن حركاتها،

ومن رفع أطراف ثوبها، صانعة خطوات أصعب في هذا الارتجال، تركل عاليًا بساقيها مؤدية توسيت مذهل، للأمام وللخلف، بهما يفخر الراقص. هتف أحد الرجال:

- انظروا إلى ساقيها!

وصاح آخر:

- انظروا إلى جواربها!

بالتأكيد كانوا ملحوظين، فقد اختارتهما ليزا في مثل لون فستانها المتألق، كانت هي نفسها فخورة بهذا التناسق.

تضاعفت حماسة رقصتها، كانت قدماها نادرًا ما تلمسان الأرض، وكانت تدور حول نفسها بجنون، هتف بها أحدهم محذرًا من ركلتها الجريئة:

- تمهلي يا ليزا وإلا تمزقتِ!

وما كادت هذه العبارة تخرج بصعوبة من فمه حتى بذلت ليزا بعض الجهد، وأرسلت قدمها في رشاقة لتركل قبعته، بين تصفيق المتفرجين وتحياتهم، ثم واصلت رقصها صانعة استدارات ولفات،، رافعة أطراف ثوبها، مرسلة قدمها في الهواء، ثم إذا هي أخيرًا، بين الهتاف والتصفيق تضع أطراف أصابعها على الأرض، ثم تقوم بهذه الحركة البهلوانية الدائرية، وكانها عجلة كبيرة تدور حول نفسها، ثم إذا هي تستعيد توازنها، ثم تجد نفسها بين ذراعيّ أقرب شاب لها.

وقال الشاب:

- هذا جميل يا ليزا.. أعطني قبلة الآن..

وحاول على الفور أن يأخذ القبلة.

فدفعته بعيدًا عنها في شيء من الخشونة وهي تقول:

- ابتعد عني.

وهتف شاب آخر وهو يسرع نحوها:

- نعم، امنحينا قبلاتكِ يا ليزا.

فزاغت ليزا من قبضته وهي تقول بظرف:

- ابتعد وإلا صفعتك!

ثم صاح شاب ثالث في حماس:

- أمسكها يا بيل.. يجب أن ينال كل منا قبلة منها.

صرخت ليزا وقد بدأت في الجري:

- لا، لن تفعلوا!

وتصايح الشبان جميعًا يهتفون:

- تعالوا نمسكها.

ولكن ليزا استطاعت بخفة حركاتها أن تفلت من بين أرجلهم، ومن تحت أذرعهم، حتى إذا خرجت عن نطاقهم، رفعت أطراف فستانها بيديها حتى لا تعوقها، ثم أطلقت ساقيها للريح في طول الشارع، وانطلق وراءها مجموعة من الشبان، مصفرين، صارخين، مهللين، ووقف سكان الشارع أمام الأبواب يستمتعون بهذا المنظر، وكلما مرت الفتاة أمام جماعة منهم، هتفوا لها، وشجعوها على مواصلة الهرب، وكانت هي تجري كالريح.

وفجأة إذا برجل ينتقل من جانب الشارع إلى منتصفه، ويقف في طريقها، وقبل أن تتمكن من الانحراف عنه، وجدت نفسها تقفز صارخة بين ذراعيه، ثم إذا هو يرفعها في الهواء، ثم يطبع قبلة حارة على كل خد من خديها.

وهتفت هي بأنفاس لاهثة:

- أنت! أوه...

وأطلقت عليه تعبيرًا فظًّا ولا يمكن أن يكون من حسن التعبير، جعلت جميع من يقفون بالأبواب، والشبان الذين كانوا يطاردونها يضجون بالضحك.. ثم رفعت رأسها فرأت رجلًا طويلًا ملتحيًا، عريض المنكبين، لم يسبق لها أن رأته في الشارع من قبل.

وتوهجت وجنتاها احمرارًا حتى جذور شعرها، وبادرت إلى التخلص من ذراعيه، ثم انسابت بين هتاف الجميع وتهليلهم إلى باب أقرب بيت لها، واختفت عن الأنظار.

* * *

الفصل الثانى

جلست ليزا إلى مائدة العشاء مع والدتها مسز كيمب، وكانت قد أصبحت أرملة منذ سنوات، وهي قصيرة القامة، ممتلئة الجسم، حمراء الوجه، ترسل شعرها الأشيب إلى جبينها، وتعيش مع ابنتها منذ وفاة زوجها في هذه الغرفة في الطابق الأرضي حيث كانتا تجلسان.

أما زوجها فكان جنديًّا، وقد منحت الدولة الممتنة أرملته راتب تقاعد كبيرًا يكفيها شر الجوع، وأخذت تؤدي بعض الأعمال لسكان الشارع، لكي تحصل على المزيد حتى تلبي حاجتها من الشراب. أما ليزا، فكانت تعتمد على نفسها في كسب رزقها بالعمل في أحد المصانع.

وقد بدت مسز كيمب في ذلك المساء عابسة، وسألت ابنتها:

- ماذا كنتِ تفعلين بعد عصر هذا اليوم يا ليزا؟

- كنت في الشارع.

- هكذا أنتِ دائمًا في الشارع كلما احتجت إليكِ!

فأجابت ليزا:

- لكني لم أكن أعرف يا أمي أنكِ في حاجة إليَّ.

- كان يجب أن تأتي لتعرفي أني في حاجة إليكِ.. أليس من المحتمل أن أكون ميتة دون أن يشعر بي أحد.

ولم تجد ليزا ما تجيب به، فاستطردت الأم قائلة:

- لقد اشتدت آلام الروماتيزم عليَّ اليوم، ولست أدري ماذا أفعل بنفسي.. لقد أمرني الطبيب أن أدلك ساقي بهذا الزيت ذي الرائحة النفاذة، ولكنك لا تهتمين بأمري.

فقالت لها ليزا:

- حسنًا يا أمي، إن آلام الروماتيزم كانت أحسن بالأمس.

- أنا أعرف ماذا كنت تفعلين في الشارع، كنتِ تستعرضين فستانك الجديد، لقد أهدرت في هذا الفستان مبلغًا كبيرًا، بدلًا من أن تعطيني هذا المال

لأدخره لكِ، وبالمناسبة، إنني أحتاج إلى فستان جديد، ولكنك، بالطبع، لا تهتمين بأمري.

ولم تجب ليزا بشيء، ولما لم تجد مسز كيمب ما تقوله بعد ذلك، استأنفت طعام العشاء في صمت، وأخيرًا قطعت ليزا هذا الصمت بقولها:

- لقد جاء إلى شارعنا سكان جدد، هل رأيتهم؟

- لا.. من هم؟

- لا أعرف! رأيت رجلًا منهم فقط، إنه كبير له لحية.. يبدو أنهم يسكنون منزلًا في أول الشارع.

وشعرت بالدماء الحارة تتصاعد إلى وجهها، بينما قالت مسز كيمب:

- أنا واثقة أن هؤلاء السكان الجدد ليسوا طيبين، إنني لم أعد أبتلع هؤلاء الذين يفدون إلى الشارع، لقد تغير الشارع كثيرًا بسببهم عما كان عندما جئت لأول مرة.

ولما فرغتا من تناول العشاء، نهضت مسز كيمب، وبدأت في إنهاء النصف لتر من البيرة الخاصة بها، ثم قالت لابنتها:

- رتبي الغرفة يا ليزا بينما أذهب لزيارة مسز كلايتون، إنها وضعت اليوم توأمًا، هذا بالإضافة إلى تسعة أولاد أنجبتهم من قبل، أليس مما يدعو إلى الأسى أن الرب لا يأخذ بعضهم، هذا ما أقوله.

بعد هذه الملاحظة التقية. غادرت مسز كيمب البيت، وانطلقت إلى الشارع، وسرعان ما دخلت بيتًا قريبًا.

أما ليزا فلم ترتب أواني العشاء كما قيل لها، ولكن فتحت النافذة وسحبت مقعدًا جلست عليه، واتكأت بمرفقها على عتبة النافذة متطلعة إلى الشارع.

كانت الشمس قد غربت، وكان شفق المغيب ينحسر ليخلي المكان لبوادر الليل، حيث تتألق النجوم في سواده. لم يكن هناك نسيم، لكن كان لطيفًا وباردًا بشكل مريح، وكان القوم الصالحون لا يزالون يجلسون أمام أبواب البيوت، يتبادلون الأحاديث نفسها التي لا تنضب مع الضوء الخافت لاقتراب الليل، وكان الصبيان لا يزالون يلعبون الكريكيت، ولكن بعد أن انتقلوا إلى

نهاية الشارع الأخرى، ومن هنا كانت صيحاتهم تأتي مكتومة فلا تزعج أذني ليزا.

كانت جالسة ورأسها بين كفيها، تستنشق نسمات الليل الوليد، وتشعر بفيض من الهدوء والسلام لم يسبق لها الشعور به. إنها ليلة السبت، وأسعدها أنها لن تذهب إلى المصنع في صباح اليوم التالي. كانت سعيدة أنها ستأخذ راحة، ولعل هذا الشعور كان رد فعل لما قامت به في أصيل ذلك اليوم من إثارة. كانت مستمتعة بهدوء هذه الأمسية، كان يبدو هادئًا وراكدًا، وكان السكون يملأها ببهجة غريبة، وشعرت أن باستطاعتها أن تبقى طول الليل وهي تنظر حينًا إلى الشارع المظلم الرطب، وحينًا إلى النجوم اللامعة في صفحة السماء.

لقد كانت تشعر أنها سعيدة للغاية، ولكنها كانت في نفس الوقت تحس مع هذا الشعور، بإحساس آخر غريب، إحساس من الحزن يكاد تتمنى معه أن تبكي.

وفجأة برز أمام نافذتها المفتوحة شبح رجل، فأطلقت صرخة قصيرة هاتفة:

- من هناك؟

لأن الظلام كان دامسًا فهي لم تستطع أن تميز الرجل الواقف أمامها.

كانت الإجابة:

- أنا.. يا ليزا.

- توم؟

- نعم.

وكان توم هذا شابًّا أشقر، ذهبي الشعر بشارب متوسط، مما يجعله يبدو صبيانيًّا في الغالب، كانت له بشرة فاتحة، أزرق العينين، ملامحه صريحة ومبهجة، خجول إلى درجة تجعل وجهه يضطرم إذا خاطبه أحد، وسألته ليزا قائلة:

- ماذا تريد؟

- أتيت لأصحبكِ في نزهة، هل تأتين؟

فقالت بصوت قاطع:

- لا!

- ولكنكِ وعدتني أمس بالخروج معي يا ليزا.

- إن الأمس شيء، واليوم شيء آخر.

كان هذا ردها الحكيم.

- أوه! تعالي يا ليزا..

- لا! قلت لك.. لن أفعل.

- إنني أريد أن أتحدث معكِ يا ليزا.

وحاول توم أن يضع يده على يدها، ولكنها سحبتها منه بسرعة وهي تقول:

- حسنًا، لا أريدك أن تتحدث معي.

وبعد أن ساد الصمت برهة، كانت هي أول من قطعه بقولها:

- أخبرني يا توم.. من هؤلاء القوم الجدد الذين جاءوا إلى الشارع وبينهم رجل طويل ذو لحية كستنائية؟

فقال توم في لهجة غامضة:

- أتقصدين ذلك الرجل الذي قبّلك بعد ظهر اليوم؟

فتوهجت وجنتا ليزا خجلًا، ولكنها لم تلبث أن تمالكت نفسها وقالت في تحدٍّ:

- حسنًا، ماذا يعنيك من تقبيله لي؟

- لم أقل أبدًا إنه يعنيني، ولكني أردت أن أسألك.. هل هو هذا الشخص الذي تسألين عنه؟

- نعم.. هو الذي أسأل عنه.

- إن اسمه بلاكستون.. جيم بلاكستون.. لقد تبادلت معه الحديث مرة واحدة، وهو يقيم في غرفتين بالطابق الثالث في المنزل رقم 9.

- لماذا يقيم في غرفتين؟

- لأنه رب أسرة كبيرة، زوجة وخمسة أبناء. ألم تري زوجته في الشارع ذات يوم؟ إنها امرأة ضخمة بدينة ذات مظهر مضحك!

- لم أكن أعرف أن له زوجة!

وعاد الصمت يخيم عليهما، وظلت ليزا تفكر لوهلة، بينما ظل توم واقفًا أمام النافذة ينظر إليها، وأخيرًا قطع توم الصمت قائلًا:

- ألا تخرجين معي الآن قليلًا يا ليزا؟

فقالت له بصوت رقيق:

- لا يا توم.. إن الوقت متأخر.

- ليزا!

وغمغم الشاب ووجهه يتضرج خجلًا.

- حسنًا؟

- ليزا!

واشتد خجله و تعثر في خجله، ولم يستطع أن يستمر.

- ليزا.. ليزا.. إنني.. إنني.. أحبكِ!

- انصرف عني.

كان الآن هادئًا بشجاعة، ثم أمسك يديها بين يديه، وقال:

- ليزا.. أنت تعرفين كم أحبكِ! إنني أكسب من عملي ثلاثة وعشرين شلنًا في الأسبوع، ولديَّ بعض الأثاث تركته لي أمي قبل أن تموت.

ولم تقل ليزا شيئًا.

- ليزا.. هل تقبلين الزواج مني؟ لسوف أكون لكِ نعم الزوج..ليزا.. سأكون طوع أمركِ.. وأنا – كما تعلمين– لا أدمن الخمر، فهل تقبلينني زوجًا يا ليزا؟

فأجابته الفتاة في هدوء تام:

- لا يا توم.

- أوه!.. ليزا.. لماذا لا تتزوجيني؟

- لا، يا توم، لا أستطيع.

- لماذا لا تستطيعين يا ليزا؟ لقد تعودت الخروج معي منذ كنتِ في السادسة عشرة من عمركِ.

- نعم.. ولكن الأحوال تغيرت الآن.

فسألها في لهفة:

- لكنكِ لا تخرجين مع شاب آخر يا ليزا؟ أليس كذلك؟

- لا.. ليس هذا ما أقصده.

- إذَنْ لماذا لا تقبلين الزواج مني يا ليزا؟ أو يا ليزا، أنتِ تعرفين مدى حبي لكِ، إنني لم أحب في حياتي أحدًا كما أحبكِ.

- أوه! إنني لا أستطيع يا توم.

- هل هناك شخص آخر؟

- لا.

- إذَنْ لماذا لا تقبلين؟

- أنا آسفة للغاية يا توم.. فأنا لا أحبك إلى الحد الذي يجعلني أقبل الزواج منك.

- أوه! ليزا!

ولم يكن في استطاعة ليزا أن ترى سمات الألم التي ارتسمت على وجهه، ولكنها أدركت بوضوح مدى تألمه من الزفرة التي أطلقها، وشعرت فجأة بالإشفاق عليه والرثاء له، فبسطت ذراعيها، وطوقت عنقه، ثم طبعت قبلة على كل خد من خديه، وقالت:

- لا تحزن يا صديقي العجوز، إنني لا أستحق أن تحزن من أجلي.

ثم تراجعت بسرعة، وأغلقت النافذة، وانتقلت إلى الجانب الآخر من الغرفة.

* * *

الفصل الثالث

كان اليوم التالي هو يوم الأحد، وقفت ليزا في الصباح ترتدي ملابسها، وكانت تشعر بصعوبة المصير من استحالة أكل كعكة الآخر والحصول عليها، ولقد تمنت أن تحجز فستانها الجديد، للاحتفاظ بإحساس أول ظهور به.

وبتنهيدة اكتفت بارتداء فستانها اليومي المعتاد للعمل، ثم شرعت تعد طعام الإفطار، وكانت أمها لم تزل راقدة في فراشها بعد أن سهرت الليلة الماضية احتفالًا بالمواليد الذين استقبلهم الشارع. وعاودها الروماتيزم هذا الصباح.

ورأت ليزا أمها وهي تضغط جبهتها بيديها ثم تغمغم:

- أو يا عزيزتي، لقد عاودتني آلام الأعصاب مرة أخرى، ولا أدري ماذا أفعل.. إن هذا الألم اللعين يفاجئني دائمًا في صباح كل يوم أحد.. آه.. أما آلام الروماتيزم فقد كانت تؤرق نومي طوال الليل.

- يحسن بكِ يا أمي أن تذهبي إلى المستشفى.

فقالت السيدة المقصودة في صوت حاسم:

- لا! أنتِ حولك دستة من الشبان المعجبين بكِ.. وهم يخبرونكِ بترك البيرة والمشروبات الروحية، أما أنا، ماذا أقول، أقول إنني لا أستطيع الحياة من دون كأس من البيرة.

ثم تثنت على وسادتها تأكيدًا على جملتها:

- ثم من يقوم بعملي إذا ذهبت إلى المستشفى؟ من سيهتم بكِ ويطهو الطعام لكِ ويقوم بكل الأعمال المنزلية أثناء عملكِ؟ ثم لا تنسي أنني أشارك في نواحٍ أخرى، ماذا أقول، ما لم أنل أي قطرة من البيرة، أقول لكِ، لولا البيرة كنت سأكون تحت الأرض في أقصر فترة.

وعادت تقول بعد أن انتصبت جالسة في فراشها تشرب الشاي وتقضم رقائق الخبز المدهون بالزبد:

- حينما تنتهين من طعامك يا ليزا، أرجو أن تنظفي الموقد، وأظن أن حذائي يحتاج إلى قليل من الدهان والتلميع، ويمكنك أن تظفري من جارتنا

مسز تايك ببعض الدهان الأسود.

وبعد برهة من الصمت عادت تقول:

- ما أظن أن في استطاعتي أن أخرج اليوم يا ليزا.. إن آلام الروماتيزم سيئة، وعلى هذا يحسن أن تقومي بترتيب الغرفة وطهو العشاء.

- حسنًا يا أمي، استريحي أنتِ اليوم، وسوف أقوم عنكِ بكل ما يجب عمله.

- هذا أقل ما يجب أن تؤديه نحوي، نظرًا إلى ما عانيته من تعب في ولادتكِ.. لقد كان الطبيب يعتقد أني ميتة لا محالة أثناء تلك الولادة. وبهذه المناسبة ماذا فعلتِ بأجركِ الأسبوعي يا ليزا؟

فقالت ليزا بلهجة هادئة:

- إنني محتفظة به.

فسألتها والدتها:

- أين ؟

- حيث يكون بأمان.

- أين هو؟

وشعرت ليزا بالحرج ولكنها قالت:

- لماذا تريدين أن تعرفي؟

- ولماذا لا تريدين أن أعرف؟ هل تعتقدين أني أريد أن أسرقه منكِ؟

- لا، ليس هذا.

- إذَنْ، لماذا لا تخبريني؟

- أوه، ولكن من الأمان أكثر ألا يعرف مكان النقود المدخرة إلا شخص واحد.

كانت هذه ملاحظة متحفظة للغاية، لكنها ملأت نفس مسز كيمب بزوبعة من الغضب، فانتصبت جالسة في فراشها، ولوحت بقبضتها في وجه ابنتها:

- إنني أعرف ماذا يدور في ذهنكِ! أنتِ.. أنتِ..

وكانت لغتها المؤكدة، وصفاتها الخلابة، ممتزجة بالكراهية:

- إنكِ تعتقدين أني سأسرق نقودكِ إذا عرفت مكانها، إنني أعرفكِ جيدًا.. هل تعتقدين أني سأذهب لأسرق مالكِ القذر؟

قالت ليزا:

- حسنًا يا أمي، ألا تذكرين عندما أخبرتك من قبل، تبخر كالعرق.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أن المال نقص.

- حسنًا، لا أستطيع أن أفعل لكِ شيئًا، هل أستطيع؟ أي شخص كان يمكن أن يدخل ويأخذ المال.

وقالت ليزا:

- لقد كنت أُخفي المال في مكان لا يعرفه أحد غيري يا أمي.

فهزت مسز كيمب قبضتها في وجه ليزا:

- أيتها الوقحة القذرة! أتعتقدين أنني أسرق مالكِ؟ لماذا؟ أما كان ينبغي بدلًا من هذا الاتهام أن تسلميني راتبكِ الأسبوعى لكي أدخره لكِ حتى لا تنفقيه في شراء مثل هذا الفستان الثمين، بينما أدمي أنا يدي وأسحق عظامي للاعتناء بكِ؟

- أنتِ تعرفين يا أمي أني أدخر هذا المال القليل لمواجهة الأيام العصيبة التي يعاكسك فيها الحظ ولا تجدين عملًا.

وكانت نقود مسز كيمب عادة تنفد في يوم الثلاثاء، وكان على ليزا أن تحتمل عبء الإنفاق حتى السبت التالي، وعادت مسز كيمب تقول:

- أوه، لا تتحدثي معي بعد اليوم، إنني عندما كنت فتاة مثلكِ كنت أسلم أمي كل راتبي الأسبوعي، ولهذا لم تضطر يومًا إلى أن تطلب مني نقودًا.. كنت أسلمها كل بنس من راتبي عند عودتي من عملي يوم السبت.. فهكذا يجب أن تفعل الابنة.. هذا هو رأيي الخاص.. لقد كنت أعامل أمي كشيء نفيس. لا أحد من الأبناء المبذرين هو لي، ترى ماذا كانت ستقول الآن لو أنها عاشت لتراني وأنا أستجدي منك ثلاثة بنسات لأشتري قليلًا من البيرة؟

كانت ليزا حكيمة بالنسبة إلى جيلها، فأمسكت لسانها، ووضعت قبعتها على رأسها، وعندئذ قالت أمها:

- أتخرجين الآن وتتركيني وحدي؟ لست أدري ما الذي يجذبكِ إلى الشارع وإلى كل هؤلاء الشبان؟ إنكِ تستمتعين بشبابكِ بينما أبقى هنا وحيدة، وربما أموت دون أن يدري بي أحد.

وفاضت أحزان المرأة العجوز، فشرعت تبكي، وانتهزت ليزا هذه الفرصة فتسللت خارجة إلى الشارع. ورأت توم واقفًا أمام البيت مسندًا ظهره إلى جدار البيت المواجه له، وما إن رآها حتى تحرك إليها، فقالت له:

- أهلًا توم.. ماذا تفعل هنا؟

فأجابها قائلًا:

- كنت في انتظار خروجكِ يا ليزا.

فأرسلت إليه نظرة سريعة، ثم قالت:

- أنا لن أخرج معك اليوم، إذا كان هذا ما تقصده.

- لم أفكر أبدًا في أن أسألكِ ذلك يا ليزا بعد ما قلته لي الليلة الماضية.

كان صوته حزينًا إلى حد ما، وشعرت هي بالأسف من أجله.

فقالت له في صوت أكثر رقة:

- ولكنك تريد أن تتكلم معي، أليس كذلك يا توم؟

- ستأخذين يوم غدًا إجازة.. أليس كذلك؟

- نعم.. إنها عطلة عيد الشواطئ. لماذا تسأل؟

- لماذا؟ إن أكثر سكان الحي سيجتمعون غدًا صباحًا في حانة الأسد الأحمر، وسوف يستقلون عربة الرحلات ليقضوا يومهم في غابة شنجفورد، ولسوف أذهب معهم.

قالت ليزا:

- حسنًا.

فنظر إليها في حيرة:

- ألا تذهبين أنتِ أيضًا يا ليزا؟ لسوف تكون رحلة ممتعة مليئة بأسباب البهجة والسرور، ولن يكون معنا أحد غير سكان الشارع.

- لا.. لن أستطيع.

- لم لا؟

- لن أذهب.

- أقصد، ألا تأتين معي يا ليزا؟

- لا، شكرًا يا توم، ولكني لن أذهب.

- ستكون ممتعة يا ليزا، هل تذهبين معي؟

- لا، هذا لن يكون الصواب، يجب ألَّا أذهب معك إلى أي مكان..وهذا لا يعني أنك لا تخرج إلى هذه النزهة.

فقال في صوت حزين متهدج:

- أنا لا أفهم السبب.

- لأني لا أستطيع أن أخرج معك في صحبة بعد ما قلته لك أمس.

- ولكني لن أستمتع للحظة من دونكِ يا ليزا.

- يمكنك أن تذهب مع فتاة غيري يا توم.. تأكد أنك ستستمتع بالرحلة من دوني.

ثم أومأت برأسها تحييه، ومضت في الشارع إلى بيت صديقتها سالي، فلما وصلت إليه، جعلت من كفيها بوقًا على فمها وصاحت:

- سال.. سال.. سال.. سالي!

وعندئذ قلدها شابان كانا واقفين بالقرب منها؛ إذ صاحا قائلين:

- سال.. سال.. سال.. سالي!

فنظرت إليهما شذرًا وهتفت في حنق:

- قرني!

ولما لم تظهر سالي في نافذة البيت كررت ليزا النداء، وكرر الشابان تقليدها بعد أن انضم إليهما نصف دستة آخرون، وكانت النتيجة أن كانت هناك

ضجة كافية لإيقاظ أهل الكهف.

- سال.. سال.. سال.. سالي!

فما لبثت سالي أن أطلت برأسها، فرفعت ليزا قبعتها وشرعت تلوّح بها هاتفة:

- هيا انزلي يا سالي!

فصاحت سالي:

- حسنًا يا صديقتي القديمة.. في الحال.

وكان رد ليزا:

- كريسماس سعيد.

كانت هناك قعقعة على السلالم، وما هى إلا لحظات حتى انطلقت سالي من باب البيت وألقت بنفسها بين ذراعيّ صديقتها، ثم أخذتا تمزحان متذكرتين الميلودراما التي شاهدتاها مؤخرًا معًا.

كانت ليزا تقول وهي تضم سالي إلى صدرها وتقبلها بنشوة ملموسة:

- آه يا غزالي الحبيب!

فترد سالي قبلتها بأحرِّ منها هامسة:

- يا حبيبة قلبي وتوأم روحي!

- آه.. كيف حال جلالتك اليوم؟

فتلوي سالي لسانها في فمها وتقول بصوت أرستقراطي وقور:

- أوه، على أكمل وجه.. وكيف حالك أنت يا صاحب السمو؟

وهنا تجيب ليزا:

- أنا متعب قليلًا، لقد أصبت بألم في المعدة.

وكانت سالي فتاة قصيرة، نحيلة الجسم، كستنائية الشعر، زرقاء العينين، يكثر في وجهها حب الشباب، لها فم واسع، وأسنان متفرقة قبيحة الشكل، التي كانت تبدو كأنها تستطيع أن تطحن شريطًا حديديًّا. وكانت ترتدي مثل ليزا ثوبًا من قطعتين: العليا قديمة الطراز باهتة اللون، والسفلى سوداء

واسعة، وكانت مشمرة عن أكمامها، واضعة على صدرها مريلة قذرة. كانت بيضاء -فيما مضى-!

- لماذا تعدين شعركِ للتموج يا سالي؟

سألتها ليزا وهي تشير إلى شعرها على هيئة حلقات وأردفت:

- هل نويتِ الخروج مع صاحبكِ اليوم؟

- لا، سوف أبقى في البيت طوال اليوم.

- إذَنْ لماذا فعلتِ ذلك؟

- لماذا؟ سأذهب مع هاري غدًا إلى غابة شنجفورد.

- أوه.. في عربة رحلات حانة الأسد الأحمر؟

- نعم، وأنتِ ستذهبين؟

- لا.

- لماذا لا تذهبين مع توم؟ لا شك أنه سيكون أسعد إنسان إذا ذهبتِ معه.

- لقد حاول جاهدًا أن يغريني بالذهاب معه، ولكني رفضت.

- يا للعجب! ولكن لماذا؟

- أنا لن أكون في صحبة معه.

- هذا ما كان ليمنعكِ من الذهاب معه على كل حال.

- لا.. إنكِ ستذهبين مع صديقك هاري، أليس كذلك؟

- نعم.

- لأن في نيتك أن تتزوجي منه.

- هذا صحيح أيضًا.

- أما أنا فلا أستطيع الذهاب مع توم ثم أتخلى عنه في النهاية.

- حسنًا، أنتِ حمقاء!

ولما بلغت الفتاتان طريق وستمنستر بريدج، كان هاري ينتظر سالي هناك، فمضت إليه، وتحركت ليزا عائدة إلى البيت متمنية أن تصل البيت في الوقت المناسب لكي تطهو طعام العشاء، ولكنها كانت تمشي ببطء؛ لأنها كانت

تعرف كل ساكن في الشارع. وكان بعض السكان جالسين –كما في الليلة الماضية– أمام بيوتهم، ولكن السيدات منهن كن مشغولات بتقشير البطاطس أو خرط الخضراوات. فكانت تقف مع كل جماعة تتبادل الحديث قليلًا؛ لأنها كانت محبوبة من الجميع، وكان الجميع يسعدون بصحبتها، وكانوا يقولون عنها بعد انصرافها: «إن ليزا فتاة لطيفة».

«إنها نوع نادر، أليس كذلك؟».

وكانت هي تسأل عن أوجاع وآلام العجائز، وتستفسر عن أحوال الأطفال، الموجودين والمستقبليين، حتى أصبحوا يتعلقون بفستانها إذا مرت أمامهم، ويطلبون منها أن تشترك معهم في اللعب. وكانت يمكن أن تشترك مع الصغيرات في قفز الحبل فتمسك بطرفه، وتشترك في تحريكه بينما تقفز الصغيرات الواحدة بعد الأخرى مشتركين بثبات بأنفسهم بعد قفزتين.

وعندما أوشكت أن تبلغ البيت، سمعت خلفها صوتًا يهتف: «صباح الخير».

فالتفتت بسرعة حيث رأت الرجل الذي قال توم إن اسمه «جيم بلاكستون»، وكان جالسًا على مقعد أمام أحد المنازل يلاعب طفلين يركبان على ركبتيه.. وتذكرت لحيته البنية الكثيفة من اليوم السابق، كما تذكرت شعورها بضخامة جسمه، فلما رأته هذا الصباح، لاحظت أنه في الواقع رجل ضخم، طولًا وعرضًا، كما رأت بالإضافة إلى هذا أن عضلاته ضخمة، وأن عينيه البنيتين تتألقان بالمرح، وكان –فى رأيها– لا يتجاوز الأربعين من عمره.

وعاد يقول عندما التفتت إليه تفحصه بنظراتها: «صباح الخير».

وتصاعدت الدماء الحارة إلى وجنتيها، وشاع الاضطراب في كيانها، فتلعثمت ولم تستطع أن ترد.

قال:

- حسنًا، لا داعي لأن تنظري إليَّ كما لو كنت سآكلكِ، إني لن أفعل ذلك.

- من أنت؟ إنني لا أخاف منك.

فغمز بعينيه وقال لها:

- إذَنْ لماذا يحمرّ وجهكِ هكذا؟ هل أنتِ غاضبة مني لأني قبلتكِ أمس؟

- لا.. لست غاضبة، ولكن، أليس من البرود أن تفعل ذلك دون أن يكون بيني وبينك أي تعارف؟

- حسنًا، أنتِ التي ألقيت بنفسكِ بين ذراعيّ.

- لا.. لم أفعل.. أنت الذي اعترضت طريقي وأمسكت بي.

فضحك وقال لها:

- نعم، لقد أمسكتكِ وقبّلتكِ قبل أن تستطيعي النطق.

ثم توقف عن الضحك فجأة وأردف قائلًا:

- حسنًا يا ليزا، ما دمت قد قبلتكِ على غير إرادتكِ، فيحسن أن تصلحي الأمر وتقبليني هذه المرة برضاكِ.

فنظرت إليه وقد فتحت فمها في دهشة وقالت له:

- أنا؟ يبدو أنك مجنون!

وبدأ الطفلان يطالبان أباهما باستئناف أرجحتهما على ركبتيه، تلك التي توقفت باقتراب ليزا، وعندئذ سألت ليزا:

- أهذان ولداك؟

- نعم.. اثنان من أولادي.

- أوه!، يبدو أن لديك الكثير؟

- أكبرهما فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، وفتى في الثانية عشرة.. والأخير رضيع.

فابتسمت ليزا قائلة:

- لا شك أن عبء الإنفاق على هذه الأسرة ثقيل؟

- أثقل مما أطيق.. والابن السادس في الطريق.

فضحكت الفتاة وقالت:

- آه، حسنًا، لا شك أن هذا خطأك، أليس كذلك؟

ثم أرسلت إليه تحية الصباح، ومشت مبتعدة، وشرع هو يتابعها بنظراته وهي تبتعد، حتى رأى نصف دستة من الأطفال يتعلقون بها ويرجونها

المشاركة في لعبة الكريكيت، كانوا يتعلقون بذراعيها وفستانها ويجذبونها إلى ملعبهم، وحاولت هي التخلص منهم قائلة:

- لا، لا أستطيع، إنني ذاهبة لإعداد طعام العشاء.

فصاح أحد الأطفال:

- تطهين العشاء؟ لماذا، إنهم دائمًا يطهون طعام القطط في المحل.

- أيها الصغير الذي.. والذي...

قالت ليزا بشكل غير لائق وهي تندفع نحوه.

ولكنه استطاع أن يفلت منها، ثم عاد إليها فجأة وأمسك ساقيها، بينما أسرع زميل له وتعلق بعنقها، وجذباها إلى الأرض، وإذا ثلاثتهم يسقطون كومة واحدة متحركة، صائحة، متدحرجة، وقد بدت مجموعة من الأرجل والأذرع والرؤوس تتحرك وتتمايل للأعلى والأسفل.

واستطاعت ليزا أن تخلص نفسها بصعوبة، ثم تناولت قبعتها وضربت بها بقية الأطفال وهي تستخدم كل التعبيرات الحية،. حتى إذا أفسحت لنفسها الطريق، انطلقت منتصرة تعدو إلى البيت حيث شرعت في إعداد العشاء.

* * *

الفصل الرابع

كان الجو يوم عيد الشواطئ جميلًا، كانت السماء خالية من السحب وتهدد بحرارة خانقة في قمة مجدها، ولكن في الصباح الباكر حين استيقظت ليزا ونهضت من فراشها، وفتحت النافذة لتستقبل نسمات الصباح الرطبة المنعشة، ثم ارتدت ملابسها العادية وهي تفكر حائرة كيف تقضي هذا اليوم.. فكرت أن صديقتها سالي ستذهب مع حبيبها إلى شنجفورد، وستظل هي وحدها في الشارع الممل بينما ذهب نصف الناس للنزهة.

كادت أن تتمنى لو أن هذا اليوم كان من أيام العمل العادية، بذلك لن يكون هناك أي أمور مثل عيد الشواطئ، فقد شعرت بأنه - وإن كان يشبه يوم الأحد السابق والذى سبقه- إلا أنه أكثر سوءًا.

وكانت أمها لا تزال مستغرقة في النوم، وإذَنْ ليس هناك ما يدعو إلى السرعة في إعداد وجبة الإفطار، فجلست إلى النافذة، وأخذت تنظر إلى واجهات المنازل المقابلة، وبعد فترة وجيزة رأت سالي صديقتها مقبلة وحدها وقد ارتدت ثوبًا من القطن الناعم المحلى بالمخمل، فستان أحمر جميل للغاية، وقبعة واسعة الإطار مغطاة بالريش، وقد استفادت من إبقاء شعرها ملفوفًا متموجًا منذ يوم السبت، وكانت أهدابها الذهبية مشدودة من الأذن إلى الأذن، كانت في معنويات مرتفعة. وهتفت بها سالي عندما رأتها في النافذة:

- هاللو ليزا.

فقالت ليزا في هدوء وقد شعرت ببعض الغيرة:

- صباح الخير يا سالي.

- إنني في طريقي إلى حانة الأسد الأحمر لمقابلة هاري.

- فى أي ساعة ستتحركون؟

- فى الثامنة والنصف تمامًا.

- لماذا؟ إن الساعة الآن الثامنة فقط.. لقد سمعت ساعة الكنيسة وهي تدق منذ لحظات، وغالبًا لن تجدي هاري في انتظاركِ الآن. أليس كذلك؟

- أوه، أنا واثقة أنه سيذهب مبكرًا..لا أستطيع الانتظار، تصوري أني استيقظت اليوم في الخامسة صباحًا، وانتهيت من ارتداء ملابسي منذ السادسة والنصف.

- منذ الخامسة؟ وماذا كنت تفعلين؟

- كنت أرتدي ملابسي، لقد استيقظت مبكرة، كنت أحلم طوال الليل بهذه الرحلة.. لم أستطع الاستغراق في النوم ببساطة.

وقالت ليزا:

- حسنًا، كوني حذرة!

- لماذا؟ إنني لن أجد هذه الفرصة كل يوم.. ولا بد أن أستمتع.

قالت ليزا ببعض السخرية:

- لماذا؟ إنكِ ببساطة يمكن أن تجديها حيث تكونين.

سألتها سالي:

- ألا تتمنين يا ليزا لو أنكِ ذاهبة معنا؟

- لا! كان في استطاعتي الذهاب لو أردت، ولكنني لا أريد الذهاب.

- إني لا أفهم سر إصراركِ على رفض الرحلة، إنها فرصة لا تُعوَّض.

- حسنًا، لقد ضاعت الفرصة الآن، فلا داعي لاستمرار الحديث عنها.

وكانت في صوتها رنة ندم خفيفة، فقالت لها سالي:

- تعالي يا ليزا إلى حانة الأسد الأحمر لتشاهدينا ونحن نرحل.

فقالت ليزا في حرارة:

- لا.. لتحل عليَّ اللعنة إذا فعلت هذا.

- لماذا؟ تعالي معي.. ربما يتأخر هاري قليلًا، وعندئذ تبقين معي حتى يحضر، وسيمكنكِ رؤية الآخرين.

وكانت ليزا –في الواقع– مشوقة لرؤية الجياد وعربة الرحلات وسكان الشارع الذاهبين، ولكنها كانت مترددة قليلًا، فلما كررت سالي عليها الرجاء أجابتها قائلة:

- حسنًا، سوف أذهب معكِ، وأنتظر حتى أرى العربة العتيقة وهي تمضى بكم.

ولم تهتم بوضع القبعة على رأسها، وإنما خرجت كما هي، وصحبت سالي إلى حيث الحملة.

وعلى الرغم من أنه كان باقيًا على بدء الرحلة حوالي نصف ساعة، كانت العربة واقفة أمام مدخل الحانة الرئيس، وهي عربة طويلة وعريضة في داخلها صفوف المقاعد مرتبة بالعرض، يتسع كل كرسي منها لأربعة ركاب، وكان يجرها اثنان من الخيول القوية، وأخذ الحوذي يدور حول الجياد يختبر حالتها.

ولم تكن سالي هي أول من وصلت إلى المكان، فقد سبقها إليه حوالى ستة من سكان الشارع، اتخذوا أماكنهم على مقاعد العربة، ولكن هاري لم يكن قد وصل بعد، وكانت الفتاتان واقفتين في مدخل الحانة تشاهدان التحضيرات، وبين الحين والآخر كانت السلال الضخمة المليئة بألوان الطعام تحمل إلى المركبة مع صناديق من علب البيرة التي كانت توضع في مكان خال بين المقاعد أو عند قدمي السائق.

وكلما أقبل ركاب جدد، ازدادت سالي انفعالًا لعدم ظهور هاري، وكانت تغمغم:

- تُرى لماذا تأخر هاري؟ لقد بدأت أشعر بالقلق.

ثم تدور بعينيها في أنحاء شارع وستمنستر بريدج؛ عسى أن تراه قادمًا من بعيد.

- إذا تخلف عن الاشتراك في هذه الرحلة، فسوف أنهال باللوم عليه لأنه تركني أنتظر هكذا.

وقالت ليزا التي لم تكن ترى أن هناك شيئًا يستحق الانفعال:

- لماذا؟ لا يزال هناك حوالي ربع ساعة.

وأخيرًا لمحت سالي حبيبها آتيًا من بعيد، فانطلقت إليه بلهفة تاركة ليزا وحدها تنظر ببؤس إلى ما يجري أمامها من استعدادات صاخبة، كانت تتمنى

لو أنها اشتركت في هذه الرحلة، وكانت في الوقت نفسه، لا تشعر بالأسف لأنها رفضت رجاء توم للذهاب معه.

وعادت سالي مع صديقها الذي كان مرتديًا أفضل ما عنده من ملابس يوم الأحد، كان يناسب حبيبته الشابة تمامًا، كان يرتدي قميص بطوق مع الكماليات المعتادة، وكان حاملًا تحت إبطه قيثارة ليمرح أثناء الطريق، ونظر الشاب إلى ليزا في دهشة حين رآها من دون قبعة ومئزرها مفتوحًا ثم قال متسائلًا:

- ألستِ ذاهبة معنا يا ليزا؟

فردت عليه سالي:

- لا، إنها لن تذهب يا هاري، يبدو أنها فقدت عقلها اليوم، لقد ألح عليها توم لتذهب معه ولكنها رفضت.

- حسنًا، لقد تمزقت!

ثم صعد إلى العربة مع فتاته، واتخذا مكانهما بين الركاب، وبقيت ليزا وحدها مرة أخرى.. وتقاطر الركاب حتى أوشكت العربة أن تمتلئ، وكانت ليزا تعرفهم جميعًا، ولكنهم كانوا مشغولين عن الحديث معها باتخاذ أماكنهم.

وأخيرًا أقبل توم، فلما رآها ذهب إليها، وقال لها:

- ألا يمكن أن تغيري رأيك يا ليزا وتأتين معنا؟

فقالت في هدوء وهي تشعر بأنها تردد كلامًا معادًا:

- لا يا توم، لقد أخبرتك بأنني لا أستطيع.. إن هذا ليس صوابًا.

فقال:

- لن أستمتع بهذه الرحلة من دونكِ.

فأجابته في شيء من التجهم:

- حسنًا، ما ذنبي أنا؟

وفى تلك اللحظة، خرج من باب الحانة رجل يحمل في يده بوقًا، وعندئذٍ شعرت ليزا بقلبها يخفق في عنف، فقد كانت تعشق سماع نغمات البوق أثناء رحلة كهذه، وخامرها حينئذ شعور مفاجئ بقسوة الأقدار حيث يجب أن تمكث

في البيت بينما كل هؤلاء الناس سيذهبون للاستمتاع بمثل هذه الأمسية..وكلهم يبدون مبتهجين. وتخيلت في ذهنها متعة الانطلاق في العربة والنزهة، وعندئذ فاض بها الشعور بالندم إلى حد الرغبة في البكاء، ولكنها – مع هذا كله – ظلت تردد لنفسها أنها لن تذهب، ولا يجوز لها أن تذهب، رددت هذا لنفسها مرتين.

وأرسل نافخ البوق إنذاره الأول، رأت ليزا رجلًا وسيدة يهرعان نحو العربة، وكان الرجل هو جيم بلاكستون، وكانت السيدة –كما استنتجت ليزا– هي زوجته.

وقال جيم لليزا:

- هل ستأتين معنا يا ليزا؟

فأجابته قائلة:

- لا، ولكني لم أكن أعرف أنك ستذهب.

فقال لها:

- أتمنى لو أنكِ أتيت معنا، لسوف نلعب لعبة.

وحاولت ليزا أن تكتم التنهدات، واستبدت بها رغبة عنيفة للذهاب، وأيقنت أن من الصعب على نفسها البقاء وحدها، وكل هذا بسبب أنها لن تتزوج من توم.

لماذا لا تذهب؟ لم يكن في الواقع سببًا لترفض هذا.

وأدركت عندئذٍ مدى حماقة رد فعلها. إن موقفها الخاطئ هذا لا يفيد أحدًا.. حتى إن سالي اعتقدت أنها حمقاء.

وكان توم واقفًا بجانبها، صامتًا، ترتسم على وجهه علامات الأسى والاكتئاب، أما جيم فقال لها هامسًا:

- لشد ما يؤسفني أنكِ لن تذهبي معنا.

وتضاعف شعورها بالأسى، وشعرت بالرغبة الملحة في الذهاب، ولم يعد في استطاعتها أن تقاوم هذه الرغبة أكثر من ذلك، فلو أن توم يسألها مرة

أخرى فقط، ولو أنها غيرت رأيها بمعقولية ولطف، ولكن توم ظل واقفًا صامتًا، وكان عليها أن تتكلم هي بلهجة غير وقورة:

- أنت تعرف يا توم أني لم أقصد أن أفسد عليك بهجة هذا اليوم.

- أعتقد أني لن أشترك في الرحلة، سوف تكون مملة من دونكِ.

افترضت أنه لن يكرر الدعوة لها، فماذا تفعل؟ إنها ترفع عينيها إلى الساعة الكبيرة الموضوعة على مدخل الحانة، إنها تعلن أن الموعد لم يبق عليه إلا خمس دقائق حتى تكتمل النصف ساعة،كم سيكون رهيبًا إذا تحركت العربة ولم يطلب منها.

ودق قلبها بعنف في صدرها، وبسبب إثارتها راحت أصابعها تلوي أطراف مئزرها في توتر عصبي، ثم قالت:

- حسنًا، ماذا في وسعي أن أفعل يا عزيزى توم؟

- باستطاعتك أن تأتي معي.. آه يا ليزا.. إنني أتوسل إليكِ أن توافقي.

وهكذا ظفرت بالدعوة مرة أخرى، ولم يبقَ عليها إلا أن تتظاهر بالتردد، ثم يتم كل شيء، فقالت له:

- يسرني أن أحقق رغبتك يا توم، ولكن هل تعتقد أن ذهابي معك أمر صحيح؟

فأمسك بيدها ملهوفًا وتمتم بأنفاس لاهثة:

- إنه أمر صحيح بكل تأكيد. هيا يا ليزا.

فأطرقت برأسها وقالت:

- حسنًا، إنني لا أريد أن أحرمك من هذه الرحلة.

أجابها:

- أنا لن أذهب إذا لم تذهبي.

- حسنا، إذَنْ ليكن واضحًا أن ذهابي معك لا يعني أني سأقبل الزواج منك.

- لا، لن يعني شيئًا أنتِ لا تحبينه.

- حسنًا.

فهتف الشاب وهو لا يكاد يصدقها:

- أحقًّا ستذهبين؟

فقالت وقد ملأت وجهها الابتسامة:

- نعم.

- إنكِ فتاة طيبة لطيفة يا ليزا.

ثم صاح قائلًا لهاري:

- هاري.. سالي.. إن ليزا آتية معنا!

وهتف هاري:

- مرحى يا ليزا!

وصاحت سالي:

- أهذا صحيح يا ليزا؟

وشعرت ليزا بالنشوة والسرور وهي تقول:

- نعم.

وهتفت سالي:

- مرحى!

ثم قال لها جيم:

- أحقًّا ستأتين معنا يا ليزا؟

وابتسم لها برقة حينما تطلعت إليه.

وقال هاري وهو يشير إلى مكان خالٍ بجواره:

- ها هو ذا مكان يتسع لكما.

فقال توم:

- حسنًا.

وقالت ليزا:

- سوف أذهب لأخبر أمي وأرتدي ثوبًا لائقًا.

فهتف توم:

- إذَنْ أسرعي.. لم يبقَ غير ثلاث دقائق على بدء الرحيل.

وبدأت ليزا تعدو بأقصى ما يمكنها من سرعة.

و صاح هاري بالحوذي:

- انتظر أيها العجوز، هناك راكب آخر سيحضر في خلال دقيقة.

فأجاب السائق قائلًا:

- حسنًا أيها الديك العجوز! لن أتعجل.

هرعت ليزا إلى الغرفة، ونادت على أمها التي كانت لا تزال نائمة:

- أمي.. أمي.. إنني ذاهبة إلى شنجفورد.

ثم خلعت ثوبها القديم في لمح البصر، وانزلقت داخل الفستان البنفسجى الجديد، ورمت حذائها القديم وارتدت الحذاء الجديد، وسوت شعرها على عجل، وأعطت رموشها التواءة حيث كانت محظوظة؛ لأنها كانت منحنية منذ السبت الماضي، واختطفت قبعتها السوداء ذات الريش، وانطلقت إلى الشارع، وهرعت إلى العربة حتى قفزت إلى حضن توم.

وفرقع الحوذي سوطه، وأطلق نافخ البوق نفيره، وبصرخات وتشجيع من الركاب، انطلقت العربة على الطريق.

* * *

الفصل الخامس

ما كادت ليزا تسترد أنفاسها، حتى شرعت تتلفت متفقدة بقية الركاب، واستقر نظرها برهة على المرأة التي مع جيم بلاكستون.

- هذه سيدتي.

قال جيم وهو يشير لها بسبابته.

فقالت لها ليزا بطريقة التعارف:

- إنك لا تنزلين إلى الشارع كثيرًا، أليس كذلك؟

وردت عليها مسز بلاكستون:

- لا.. إن ابني الرضيع مريض بالحصبة، ولهذا كنت مشغولة برعايته.

- أرجو أن يكون أحسن حالًا الآن.

- إنه في طريقه إلى الشفاء، وقد أراد جيم أن نذهب اليوم إلى شنجفورد وقال لي: يجب أن تذهبي معي إلى شنجفورد أيضًا لأنكِ في حاجة إلى تغيير الهواء.. كما قال لي أيضًا: يمكنكِ أن تعهدي إلى بولي –وهي ابنتي الكبرى كما تعرفين– برعاية الأولاد.. فقلت له: حسنًا، لا بأس في أن أذهب معك.

وكانت ليزا خلال ذلك تتفحص المرأة، فلاحظت أنها ترتدي عباءة سوداء، و»بونيه» قديم الطراز مثير للضحك، أما المرأة نفسها فكانت بالاضافة إلى بدانتها وتكور جسمها واكتناز وجهها، تبدو أبعد ما تكون عن الجمال، ففمها واسع، وشعرها مستقيم مفروق من الوسط ويهبط على جانبي وجهها بضفائر قصيرة، وعيناها ضيقتان منتفختا الأجفان، وكانت بين الثلاثين والأربعين من عمرها، ولكنها برغم ذلك وبرغم متاعب الحمل والوضع وتربية الأولاد تبدو متمتعة بقوة جسدية هائلة.

أما بقية الركاب، فكانت ليزا تعرفهم جميعًا، وكانوا – بعد أن استقروا في أماكنهم– قد بدأوا يتبادلون التحيات والأحاديث، ويعبرون عن بهجتهم لوجود ليزا بينهم، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أنه حيث توجد ليزا فلن يكون هناك أي ملل.

وتركزت أنظار ليزا أخيرًا على شاب متأنق يرتدي أحدث طراز من الملابس في ذلك الوقت: سترة رمادية، وسروالًا ضيقًا، وحذاء براقًا، ثم هتفت به أخيرًا:

- أهذا أنت يا بيل؟

وأجابها:

- مرحبًا بكِ يا ليزا.

- لقد طرقت على قلبي. «أنت أنيق اليوم!».

وهنا التفتت صاحبته إلى ليزا، وقالت لها في سخرية مصطنعة:

- لا..لا يا ليزا كيمب. لا تداعبي خطيبي بعبارات الغزل هذه.. وإياكِ أن تتمادي في مغازلته حتى لا أضربكِ.

فأجابتها ليزا:

- اطمئني يا كلاري شارب، إنني لا أريد مغازلة خطيبكِ، وما حاجتي إلى ذلك ومعي من هو أجمل وأكثر أناقة. توم؟

ثم التفتت إلى توم، فتضرجت وجنتاه، وانعقد لسانه لفرط سعادته بهذه العبارة، فلم يستطع أن يقول شيئًا، واكتفى بأن لكزها بذراعه.

وصاحت ليزا وهي تضع يدها على جانبها:

- أوه! حذار يا توم! لقد كدت تكسر ضلوعي.

وهنا قال لها شاب مهذار:

- لا تخشي على ضلوعكِ من الكسر، إنها أقوى من ضلوع الحوت!

- قرني!

بينما تظاهر توم بالغباء، وقال لها وهو يتحسس جانب خصرها:

- هل لديكِ حقًّا ضلوع حوت؟

فقالت له:

- ابعد ذراعك عني وكُن لطيفًا.

- حسنًا، إنما أريد أن أعرف إذا كانت لديكِ.

- قرني!.. لا تقترب مني هكذا.

ولكنه ظل كما هو. فكررت هي:

- ألم تفهم بعد؟ قلت لك ابعد ذراعك عن خصري.. إذا سمحت لك بلمسي هكذا فسوف أضطر إلى قبول الزواج منك فيما بعد؟

- هذا ما أرجوه، بل ما يجب أن يكون يا ليزا.

فقالت له في شيء من الغضب، وقد أبعدت ذراعه في عنف:

- احذر!

ومضت الجياد في طريقها، وشرع صاحب البوق يرسل النغمات بقوة.

- مهلًا يا صاحبي وإلا انفجرت بيننا.

قالها أحد الركاب له عندما أطلق صوتًا مزعجًا عاليًا.

وكانت العربة تنطلق بهم نحو الشرق، وكلما مر الوقت ازداد عدد عربات الرحلات على الطريق، واشتدت حركة المرور، وأخيرًا وصلت العربة إلى الطريق المؤدي إلى غابة شنجفورد حيث لحقت بعدد كبير من العربات المنطلقة إلى الغابة هناك. وكانت العربات مختلفة الأشكال، مختلفة الأنواع، منها ما تجره الحمير، ومنها ما تجرها المهور الصغيرة، وعربات التجار، عربات الكلاب، عربات الجر، وكانت العربات الرديئة التي تجرها الحمير على أربعة من العجلات المعدلة الصلبة بالمقارنة بزوجين من الجياد الشجاعة قد حققت هدفين بسهولة. كانت ممتلئة بالركاب، وكلما حاذت عربة أخرى، تبادل ركابهما الهتاف والتحية، وكانت عربة «الأسد الأحمر» أكبر حجمًا، وأكثر ركابًا وأعلى ضجيجًا، وحرارة الجو تشتد كلما ارتفعت الشمس، بينما غبار الطريق يتصاعد من إشعاع الشمس فيزيد الجو اختناقًا.

وهكذا كانت العبارة المعتادة التي تتردد بين الحين والآخر من الجميع هي: «إنني أكاد أختنق بالحرارة».

وأخذ الجميع ينفخون ويزفرون، ويتعرقون، ثم بدأ الرجال يتخففون من ستراتهم وياقات قمصانهم العالية الضيقة، وجلسوا بقمصانهم مشمرة الأكمام، كما خلع النساء قبعاتهن ومعاطفهن.

عندئذ تبع ذلك مزاح بشكل غير محدد فيما يتعلق بالملابس التي على كل شخص أن يتخلص منها، التي أظهرت أن التلميح بالمهزلة الفرنسية لم تكن معروفة كما يجب، كما كان يفترض الرجال الإنجليز الشرفاء.

وأخيرًا لاحت للأنظار تلك الحانة الواقعة في منتصف الطريق، حيث كانت الجياد ستنال قسطًا من الراحة وتدلك بالإسفنج. وكانت موضوع الأحاديث بين الركاب خلال الربع ميل الأخير، وعندما لاحت للناظرين في أعلى التل، انفجرت الصيحات وهتف المتعطشون وهم يهتزون فانطلقوا هاتفين منشدين: «احكمي يا بريطانيا»، بينما انفجر آخرون في الصفير بأغنية قومية قصيرة «البيرة، البيرة المجيدة».

وما كادت العربة تقف أمام باب الحانة، حتى هبط الجميع منها مسرعين بقدر ما استطاعوا، كانت الحانة محاصرة وما هي إلا لحظات حتى شغل صاحب الحانة وخدم الحانة بتقديم أكواب البيرة للقوم بالخارج.

كانت الفتاة الحسناء أديل تتبادل مع خطيبها الشاب كرويدون أكوابهما، وببسالة فكر المؤمن الريفي وراعية الغنم المحبين أنه يجب أن يشربا من نفس الوعاء. وقال كرويدون وهو يقدم لها بأدب الوعاء مترعًا يفور الزبد على جوانبه:

- اشربي يا حبيبتي، لا عطش بعد الآن.

ودون تردد رفعت أديل الكوب الكبير إلى شفتيها وراحت تشرب منه في لهفة، كان يراقبها بقلق.

- كوني عادلة يا عزيزتي، واتركي لي منه قطرات.

قال لها بينما هو يرى الوعاء وهو يرتفع أعلى فأعلى، بينما محتوياته تصبح أقل فأقل.

عند هذا الحد توقفت راعية الغنم العاشقة عن الشرب، وسلمت الكوب إلى حبيبها.

قال كوريدون:

- حسنًا، إنني متلهف.

ثم أضاف وهو ينظر إليها:

- أعتقد أنكِ تعرفين شيئًا أو شيئين.

وبشكل متملق حرص على أن يضع شفتيه على الموضع الذي لمسته شفتاها، ثم راح يشرب حتى أنهى الوعاء.

- رائع.

قالت له راعية الماعز وهي تراقبه وتلعق شفتيها وتتنهد:

- كان هذا شيئًا رائعًا.

وأخرجت لسانها ولعقت شفتيها ثم تنهدت بعمق.

أطلق الريفي المؤمن بعد أن انتهى تنهيدة طويلة وقال:

- حسنًا، يمكنني أن أشرب المزيد.

- بالنسبة إلى طعمها، يمكنني أن أفعل حتى وأنا أغرغر.

متشجعًا بهذا عاد الشجاع إلى الحانة وسرعان ما أحضر وعاءً ثانيًا.

- اشرب أنت أولًا هذه المرة.

قالت بغرام، فشرب جرعة كبيرة، ثم ناولها إياه، فأمسكته -بحياء العذراء- وأدارته في يدها حتى لا تلمس شفتاها الموضع الذي لامسته شفتاه، ولكنه لاحظ ذلك عندما رآها فقال:

- أهكذا تعبرين لي عن خصوصيتي عندك؟

عندئذ ومن دون رغبة في أن تحزنه، أدارت الوعاء مرة أخرى، ووضعت شفتيها الياقوتية على نفس الموضع الذي شرب منه ثم أعادته إليه قائلة:

- الآن لن يتأخر موعد زواجنا كثيرًا!

أخرج القروي المؤمن من جيبه بايب قصيرًا وأشعله وراح يدخن في نشوة وهدوء، بينما تنهدت إيديل في فرحة وارتياح وهي تتحسس بطنها حيث استقر الشراب الرطب، ولاحظت أن كرويدون يبصق، وفى الحال قالت حبيبته مداعبة:

- أنا أستطيع أن أبصق أبعد منك.

- بل أنتِ لا تستطيعين ذلك وأراهنكِ!

ثم أخذ الاثنان يتنافسان في قذف البصقات وهما يضحكان، هو يبصق، ثم تتبعه هي، مرات ومرات، واستمرت هذه المنافسة إلى أن دوّت نغمات النفير تعلن الركاب أن يأخذوا أماكنهم.

ولما بلغت العربة غابة شنجفورد، نزل الجميع تاركين الجياد مطلقة في مكان ظليل، ثم تفرقوا في جوانب الغابة حتى يحين موعد الغداء، كانوا جميعًا جائعين، ولكن لأنه ليس موعد الطعام بعد فقد تفرقوا من أجل الحصول على بعض الشراب في نفس الوقت.

ليزا وتوم مع سالي وحبيبها الشاب ذهبوا معًا إلى أقرب مشرب، وهناك شربوا البيرة، وكان هاري الذي كان رجلًا رياضيًّا يعطيهم شرحًا بيانيًّا لمباراة في الملاكمة حضرها مساء السبت الماضي، التي كان يقدمها رجل بارز أصيب بشدة حتى إنه مات بسبب تلك التأثيرات، كان هذا الأمر يمثل قضية بسيطة للآخرين، وقال هاري إن هناك الكثير من العربات من الغرب موجودة، وأنه لاحظ مجهوداتهم المضحكة للوصول دون أن يراهم أحد، وكانت خشيتهم عندما يرعبهم أحدهم إذا صاح «نحاسيون!»، بعدها دخل مع توم في مناقشة في موضوع الملاكمة، وفيها كان توم –الذي كان شخصًا خجولًا وغير متزمت– يبدو صوفيًّا تمامًا. بعد ذلك عادوا إلى العربة حيث وجدوا كل شيء قد أُعِدَّ للغداء، سلال الطعام وصناديق الشراب فُتحت وأُخليت مما فيها من طعام، أما زجاجات البيرة التي كانت متوفرة بكثرة فقد جعلت الكثير من الأفواه الظامئة تظمأ أكثر، وقال الحوذي بصوته الجهوري:

- هيا أيها السادة والسيدات، إن كنتم حقًّا سادة وسيدات، إن الحيوانات الآن تريد أن تأكل وتشرب.

فصاح به أحدهم:

- أيها القرني!، إننا لسنا حيوانات لسبب بسيط؛ لأننا لا نشرب الماء.

فرد عليه الحوذي قائلًا:

- أنت بارع للغاية، إنني أرى أنك قد أتيت للتو من مدارس الخارج!

ولأن المتحدث السابق كان يبدو في مظهره كالنساء، فقد كانت الملاحظة في محلها من السخرية.

أخذ عازف البوق ينفخ فيه بشدة بنغمة، وقد انتفخت أشداقه مما جعل ليزا تقول له:

- لشد ما أخشى أن تنفجر بيننا، ولو أنك انفجرت لأفسدت علينا الطعام.

ثم جلس الجميع إلى فطائر لحم الخنزير، والبطاطس الباردة، واللحم البارد، والسجق المجفف، وشرائح اللحم المشوي، والبيض المسلوق، والجمبرى والكابوريا، والخضراوات، والجبن، والزبد، والفراولة والتفاح والكريز، وأنواع مختلفة من الفطائر والحلويات ومرة أخرى الكثير من فطائر لحم الخنزير.

وأقبل الجميع على التهام تلك الكميات الضخمة كالوحوش الجشعة، في صمت ولهفة، بجدية وتبلد للحس، مستعينين بالشراب على ابتلاع القطع الكبيرة التي يدفعونها إلى حلوقهم بغير مضغ!

ولو أن رجلًا أجنبيًّا ذكيًّا رآهم وهم يتخلصون من الطعام بهذا الشكل، لأدرك لماذا إنجلترا هي أمة عظيمة!، كان سيفهم لما الشعب البريطاني مستحيل، مستحيل أن يصبحوا عبيدًا!

كانوا لا يكفون عن الأكل إلا ليشربوا، ولا يكفون عن الشراب إلا ليأكلوا، ومع كل بلع كانوا يفرغون كؤوسهم، كأنهم صنابير الجحيم، واستمروا يأكلون، واستمروا يشربون، لولا أن لكل شيء نهاية، وأخيرًا توقفوا ثم تجشأوا جميعًا في وقت واحد، كتعبير عن الامتلاء.

وبعد هذا انفض التجمع، وانطلق القوم الطيبون في ثنائيات متفرقة، ومضى هاري وفتاته سالي في أحد الممرات الجانبية الهادئة من الغابة حيث يتاح لهما هضم الطعام مع عبارات الغزل.

وكان توم، منذ بداية الرحلة، في انتظار هذه اللحظة السعيدة، وكله أمل أن يذوب برود ليزا بعد أن تملأ معدتها بالطعام والشراب، وكان يتخيل نفسه جالسًا معها على العشب تحت شجرة ظليلة، وظهره مستند إلى جذع

الشجرة، وقد أحاط خصرها بذراعه، وأسند رأسها إلى صدره، وبينما هو كذلك كانت ليزا – بعد أن رأت تفرق الجماعة– تفكر في الطريقة التي تستطيع بها الهرب من صحبة توم، دون أن تجرح شعوره.

وقالت لنفسها وهي تفكر بعمق: «إنني لا أريد أن يلاحقني بغرامه، لقد ضقت ذرعًا بعبارات غزله المعادة وقبلاته الخائرة!».

ولكنها لم تكن –في الواقع– تدري لماذا أصبحت تكره غرامه وقبلاته، كل ما تعرفه أنها أصبحت تضيق بها، وتشعر بالسأم منها.

وبينما هي تفكر في هذا كله، إذا بالقدر يهيئ لها فرصة للنجاة. فقد أقبل نحوهما جيم وزوجته، وبدا من حديثهما أنهما ليسا حريصين على قضاء فترة ما بعد الظهر وحدهما. فانتهزت ليزا هذه الفرصة -وهي محرجة قليلًا- واقترحت عليهما أن يسيروا هم الأربعة معًا بعض الوقت في الغابة.

وافق جيم على الاقتراح على الفور في سرور واضح، بينما ارتسمت أمارات الإحباط على وجه توم، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية لقول أي شيء، وكل ما استطاع أن يفعله أن أرسل إلى بلاكستون نظرات شزر، ولكن هذا قابلها بابتسامة ساخرة.

ومشى توم معهم متجهم الوجه، وبدأوا تمشية طريفة خلال الغابة، وقد حاول جيم أن يسير مع ليزا، ولكن ليزا لم تكن راغبة في ذلك لأنها كانت قد توصلت إلى استنتاج أن جيم على الرغم من وقاحته فإنه ليس رجلًا سيئًا.

وقد كان توم يمشي بجوارهم، ولكن عندما حاول جيم أن يسرع بليزا بعيدًا عن زوجته وعن توم، أدرك توم هذا فكان يسرع بخطواته كلما أسرع جيم، واضطرت مسز بلاكستون إلى المشي السريع الذي يشبه العَدْو حتى لا تتخلف عنهم.

وحاول جيم أن يستحوذ بحديثه على مسامع ليزا حتى يشعر توم أنه غير مرغوب فيه، ولكن هذا كان يتدخل في حديثهما بعبارات غاضبة قاطعة، لكي يُفسد عليهما متعة المحادثة.

ولما ضاقت ليزا بعباراته الغاضبة، قالت له في شيء من الحدة:

- يخيل إليَّ أن أعصابك هذا الصباح ليست على ما يرام يا توم؟

- هل كانت أعصابي كذلك عندما قبلتِ الاشتراك في هذه الرحلة.. معي؟

وقد حرص على أن يضغط في حديثه على كلمة «معي»، ولكنها تجاهلت قصده وهزت كتفيها، وقالت له:

- إنني لا أكاد أفهم ما ترمي إليه، ولكن إذا كنت تصر على الاستمرار في هذه الحماقات، فيحسن أن تبحث عن مكان آخر تسير فيه!

فقال لها في غضب:

- أعتقد أنكِ تريدين مني أن أذهب فورًا.

- أنا لم أقل هذا.

- حسنًا يا ليزا، إنني لن أظل في مكان لا تريدينني فيه.

ثم استدار على عقبيه ومضى في طريق يؤدي إلى قلب الغابة.

كان توم وهو يمشي وحده على غير هدى، يشعر بالتعاسة، وكان هناك شعور بالغصة في حلقه كلما تذكر موقف ليزا منه، لقد بدت قاسية معه، جاحدة، باردة ، حتى تمنى لو أنه لم يأت أبدًا إلى شنجفورد.

كان من السهل عليها – لو أرادت– أن تسير معه وحده، بدلًا من إشراك ذلك الحيوان بلاكستون معهما. ولكنها لم تفعل شيئًا من أجله، وخيل إليه أنه صار يكرهها، ولكن.. هل يستطيع حقًّا أن يكرهها؟

لقد كان أحمق مسكينًا في الحب، وبدأ يشعر بأنه ربما كان مرهقًا ومدفوعًا إلى حد ما لارتكاب جريمة.

وبدأ يثوب إلى رشده، وتمنى لو أنه لم ينطق بأي كلمة، وتمنى بشدة أن يراها ليعتذر لها.

استدار توم عائدًا إلى شنجفورد متمنيًا ألا تتركه ينتظر طويلًا.

أما ليزا فكانت حينها متفاجئة قليلًا عندما انصرف توم غاضبًا وقالت في دهشة:

- عجبًا، ماذا دهاه وأثاره إلى هذا الحد؟

فضحك جيم وقال لها:

- إنها الغيرة.

- توم يغار؟

- نعم إنه يغار مني.

- إنه مخطئ بلا شك، فليس هناك أي سبب يدعو إلى غيرته من أي شخص.

قالت ليزا، ثم أخذت تحكي له عن توم، كيف عرض عليها الزواج، وكيف رفضت، ثم كيف قبلت الحضور معه إلى شنجفورد على أساس الصداقة وحدها وعلى شرط أن يفهم أن لها حريتها الكاملة.

وكان جيم ينصت إليها في عطف، بينما زوجته لم تكن مهتمة؛ لأنها كانت مستغرقة في تفكير عميق في شؤون منزلها وبأسرتها.

وعندما عاد الجميع إلى شنجفورد، رأت ليزا توم واقفًا وحده في انتظارها، وقد أصيبت ليزا من تعبير البؤس على وجهه، وأدركت أنها عاملته بقسوة، فأسرعت إليه تاركة آل بلاكستون، وقالت له:

- لا داعي أن تغضب مني يا توم، إنني لم أكن أقصد أن أؤلمك.

وسرعان ما انفجر وأخذ يعتذر إليها من تصرفاته الحمقاء معها، إلى أن قاطعته بقولها:

- أتعرف يا توم، إنك لم تسئ إليَّ قط، بل أنا التي كنت متسرعة.. وإني لشديدة الأسف على كل ما وجّهته إليك.

- أوه يا ليزا، إنكِ أطيب فتاة.. وأرجو أن تسامحيني.

- أنا؟ لا، أرجو أن تسامحني أنت.

- يا لكِ من فتاة جيدة يا ليزا.

- ألم تعد غاضبًا مني؟

فأشرق وجهه بالرضى وهو يقول:

- أنا أغضب منكِ يا ليزا؟ هذا هو المستحيل نفسه.. تعالي لنشرب معًا قدحًا من الشاي، ثم نمضي لركوب الحمير.

وكانت رياضة ركوب الحمير ناجحة إلى أقصى حد، ليزا كانت في أول الأمر خائفة إلى حد ما، لذلك كان توم يسير بجوارها ليعتني بها مسندًا إياها بذراعه،

لقد صرخت في اللحظة التي بدأ فيها الحيوان في الجري، واشتد تشبثها بذراع توم حتى لا تسقط، وكان هو خلال ذلك يشعر بأنه أسعد إنسان في الوجود، ولا سيما حين يشعر بيدها تطوق عنقه، ويسمع صوتها وهي تستغيث به قائلة:

- أوه، أمسكني يا توم، سأسقط.

كان يشعر بأنه لم يرَ في حياته سعادة كهذه. واشترك أعضاء الرحلة جميعًا في هذه الرياضة، ثم اقترح أحدهم إقامة سباق بينهم، ولكن في الجولة الأولى عندما انطلقت الحمير سقطت من فوقه بين يديّ توم، بينما واصل الحمار جريه من دونها!

وسارع توم إلى اللحاق بالحمار الشارد، وعاد به إلى ليزا لتستأنف الركوب، فقالت له:

- إنني أعرف ماذا يجب أن أفعل. يجب أن أمتطيه كما يمتطيه الرجال.

فهتفت سالي:

- اللعنة! كيف تركبين كالرجال وأنتِ ترتدين فستانك؟

- نعم أستطيع، وسترين كيف.

وأحضر لها توم حمارًا آخر، عليه سرج، فوضعت قدمها في الركاب، ثم قفزت راكبة على السرج وهي تصيح منتصرة بلا خجل أو تواضع يُحسب حسابه بين أخطاء ليزا، ثم قالت لتوم بعد أن استقرت مرتاحة في هذا الوضع:

- أستطيع الآن أن أكسب السباق. اذهب يا توم فأحضر حمارًا أبله لتركبه ثم انضم إلينا.

وكان هذا الشوط التالى رائعًا ومثيرًا للصخب، فقد انطلقت فيه ليزا بحمارها هاتفة ضاحكة، تلكزه بالمهمازين حينًا، وتضربه بالعصا الرفيعة حينًا آخر حتى كسبت الشوط.

وبعد الانتهاء شعر الجميع بالإجهاد والحر والظمأ، فانطلقوا إلى المشرب وهم يتبادلون الأحاديث عن مفارقات السباق، وهناك شرب كل منهم بضعة

أقداح من البيرة المثلجة، ثم مضت ليزا وتوم، وسالي وهاري، وبلاكستون وزوجته، يبحثون عن مجال آخر للتسلية والترفيه، ووصلوا أخيرًا إلى لعبة جوز الهند.

- أوه! لنلعب هذه اللعبة!

هتفت ليزا بحماس.

وكان على الرجال أن يدفعوا البنسات، وعلى الفتاتين أن تلعبا، وبعد عدد من الطلقات الفاشلة، قالت ليزا وهي تمشط شعرها:

- كنت أظن أن الأمر بسيط، فإذا هو صعب، هيا جرب حظك يا توم.

ولكن توم لم يوفق في إصابة جوزة واحدة، وكذلك كان نصيب هاري، أما جيم فأصاب في المرة الأولى جوزتين، ثم أصاب ثلاث جوزات في كل من المرتين الثانية والثالثة، وقالت ليزا في إعجاب شديد:

- ما أبرعك يا مستر بلاكستون في إصابة الهدف.

ثم حاول الجميع إغراء السيدة بلاكستون بتجربة حظها هي الأخرى، ولكنها رفضت قائلة:

- هذه حماقة ومضيعة للمال.

فقال لها زوجها:

- حسنًا يا شريكة حياتي العجوز! لا تسلطي علينا لسانكِ.. هيا يا رفاق نأكل جوز الهند.

وبعد أن نُزعت القشور عن الجوز، شربت الفتاتان والسيدة العصير الداخلي، ثم قُسم اللباب بينهم بالتساوي، وبعد هذا حل موعد العشاء المبكر والشاي، فجلس الجميع يلتهمون مرة أخرى لفات السجق، والبيض المسلوق، والسجق المجفف، كما شربوا عددًا آخر لا يُحصى من أقداح البيرة حيث انضموا إلى هؤلاء المخمورين فعلًا.

وقالت ليزا:

- إنني لا أدري كم قدحًا من البيرة شربت، لقد أفلت زمام الحساب مني.

وضج الجميع بالضحك، ولما كان موعد العودة باقيًا عليه حوالي ساعة، قرر الجميع أن يقضوها في الإنصات إلى الموسيقى والغناء، وجلسوا جميعًا على العشب وبدأت الحفلة بهاري، الذي تناول قيثارته وراح يعزف عليها لحنًا شجيًّا، وصاح بعضهم طالبين أن يتقدم أحدهم للغناء، فنهض جيم وردد أغنية قديمة من الشعر العاطفي المكشوف، ولما لم يكن هناك مجال للخجل بين الجميع، فقد تبعته ليزا- دون أن يطلب منها أحد- وغنت أغنية فكاهية مرحة أثارت ضحك الجميع، وبعد فترة من الاستراحة، عاد بعضهم يطلبون أن يتقدم أحد للغناء، فالتفتت ليزا إلى توم الذي كان يجلس هادئًا بجوارها وقالت له:

- هيا أسمعنا أغنية أيها الديك العجوز!

فأجابها:

- لا أستطيع، إنني لست مطربًا.

وعندئذ نهض بلاكستون وتطوع لتقديم أغنية أخرى، ونظرت ليزا إليه بإعجاب وقالت لنفسها: «إن توم شاب ناعم، وليس جريئًا مثل بلاكستون».

بعد ذلك عادوا إلى المشرب حيث ظفروا بأقداح قليلة –أخيرة– من البيرة قبل العودة، ثم بدأ كل منهم يتخذ مكانه في العربة حين دوَّت نغمات البوق المؤذنة بالرحيل، وفيما كانت ليزا تصعد إلى العربة، قالت وهي تهز رأسها: «يبدو أني سكرت».

وجاء الحوذي في حالة واضحة من السُّكر، واتخذ مكانه في مقعد القيادة، وأمسك بأعنة الجياد وقد تدلت رأسه على صدره، كان يفكر بحزن في أيام الشباب الماضية الضائعة ويتمنى لو أنه كان رجلًا أفضل.

ولكن ليزا لم تكن تُكنّ أي احترام لهذه المشاعر المقدسة، لذا فقد هوت بقبضة يدها على قبعته فكبستها فوق عينيه، وهتفت:

- هيا أيها العجوز البدين، ما فائدة الاستغراق في التفكير؟

فاستدار إليها الحوذي وضربها قائلًا:

- بل أنتِ البدينة!

فقالت له تنهره:

- اسكت يا وجه البومة!

- يا وجه الطائرة الورقية!

- يا جاحظ العينين!

وكانت ترسل العبارة وتضج بالضحك، فيضحك معها الجميع، ثم تهتف وتغني وتملأ الجو حولها مرحًا وبهجة، وفى مرحها تبادلت القبعة مع توم حيث وضعت على رأسها قبعة توم، بينما وضعت قبعتها هي ذات الريش على رأسه فبدا منظرهما مضحكًا.

وعندما انطلقت المركبة في طريق العودة، شرع الجميع يغنون في صوت واحد بددت ضجته سكون الليل، مرددين الأنشودة المرحة التي مطلعها: «لأنه إنسان لطيف خفيف».

وكان توم وليزا وبلاكستون وزوجته يحتلون مقعدًا كاملًا في العربة، وقد جلست ليزا بين الرجلين، وشعر توم بسعادة تامة تمنى معها لو أن ساعات الليل تمتد إلى غاية العمر.

وأخيرًا بدأ السكون يُخيم عليهم تدريجيًّا كلما تقدمت العربة في طريق العودة، فتوقفوا عن الغناء، وخفتت أصوات الحديث إلى درجة الهمس، واستغرق بعض الركاب في النوم، وكان هاري وفتاته سالي متخاصرين وهما ينعمان بالنوم في سلام، وبدا الليل جميلًا، فالسماء صافية سوداء للغاية، تتألق في صفحتها النجوم التي لا يُحصيها العد، وكانت ليزا وهي ترنو إلى صفحة السماء ينتابها شعور غامض كما لو كانت تتمنى أن يطوق رجل قوي خصرها بذراعه، وأن تشعر بالمداعبات القوية الرجولية. وظل هذا الشعور ينمو ويكبر حتى ملأ قلبها، فكفت عن الحديث، وخيم الصمت على رفاقها الأربعة، ثم إذا هي تشعر بذراع تتسلل في رفق لتطوق خصرها، ولم تحاول في هذه المرة أن تعترض أو تغضب لأنها كانت –هي وتوم– يشعران بالسعادة.

ولكنها شعرت فجأة بحركة في الجانب الآخر، وكانت حركة يد وهي تتسلل زاحفة على ركبتها حتى وصلت إلى يدها فربتت عليها، ثم أمسكتها وضغطتها

برفق، كان جيم بلاكستون، وفوجئت ليزا بهذه الحركة، وسرت في جسدها رجفة خفيفة جعلت توم يلاحظها و يهمس لها:

- هل تشعرين بالبرد يا ليزا؟

- لا يا توم، إنها رعشة خفيفة سرت في جسمي.

وعندئذ ضغط على خصرها مترفقًا بساعده، وفى الوقت نفسه ضغطت يد بلاكستون القوية الخشنة على يدها، وهكذا ظلت بينهما حتى وصلت العربة إلى حانة «الأسد الأحمر» بطريق وستمنستر بريدج.

وقال توم لنفسه وهو يستعد للنزول: «أعتقد أنها لا تزال تهتم بي رغم كل شيء».

وعندما نزل جميع الركاب، تبادلوا تحيات المساء، ثم توجهت ليزا وسالي مع صديقيهما وبلاكستون وزوجته في الطريق إلى شارع فيرستريت، حتى إذا وصلوا إلى بدايته، قال هاري لتوم وبلاكستون:

- ما رأيكما في قدح من البيرة قبل أن تغلق الحانة أبوابها؟

فقال توم:

- لا مانع، ولكن بعد أن نصل بالفتاتين إلى البيت.

فرد هاري قائلًا:

- ليس هناك وقت! لقد أوشكت الحانة أن تغلق بابها.

- حسنًا، لا يمكننا أن نتركهما هنا.

فقالت سالي:

- نعم، تستطيعان الذهاب، لن نهرب مع أحد!

ولم يكن توم يرغب في الافتراق عن ليزا، فافترقت عنه قائلة:

- نعم، اذهب أنت مع هاري، وسوف أمضي مع سالي.. ليس لديكما الكثير من الوقت.

وقالت سالي لتضع حدًّا للنقاش:

- نعم.. طابت ليلتك يا هاري.

فأجابها هاري:

- طابت ليلتكِ يا عزيزتي الحلوة، هاتي قبلة أخيرة.

ولم تتردد سالي للحظة في إلقاء نفسها بين ذراعيّ هاري، فضمها إلى صدره بحرارة وطبع على خديها قبلتين مسموعتين.

وقالت ليزا لتوم وهي تمد يدها لتصافحه:

- طابت ليلتك يا توم.

فأخذ الشاب يدها، ثم قال وهو ينظر إليها في عتاب ولهفة:

- طابت ليلتكِ يا ليزا.

وفهمت ليزا، وبابتسامة طيبة رفعت وجهها إليه. فانحنى عليها وأخذها بين ذراعيه وقبلها بحماس.

وقال لها:

- قبلتكِ رائعة يا ليزا.

وضحك الجميع، بينما قالت له ليزا وهي تنصرف:

- شكرًا يا عزيزي على هذه الرحلة اللطيفة.

فقال لها:

- حسنًا يا ليزا.

ثم همس كأنما يحدث نفسه:

- ليبارككِ الرب.

وصاح هاري قائلًا لجيم عندما رآه منصرفًا مع زوجته بدلًا من الانضمام إليه هو وتوم:

- ألا تأتي معنا إلى الحانة يا بلاكستون؟

فأجابه قائلًا:

- لا، يجب أن أعود إلى البيت، فأنا سأستيقظ في الخامسة صباحًا.

فقال هاري في امتعاض:

- أنت فتى صغير!

ثم مضى مع توم في اتجاه الحانة، بينما تحرك الباقون إلى الشارع النائم.

وكان منزل سالي في الجزء الأول من الشارع، فدخلته، وبعد خطوات أخرى وصلوا إلى منزل بلاكستون، فوقفت ليزا تبادله وزوجته الحديث لحظة، ثم حيتهما لتستكمل باقي الطريق وحدها.

كان الشارع غارقًا في السكون، وقد زاد ضوء المصابيح المتباعدة الخافتة التي كانت تُلقي ضوءًا خافتًا من شعور ليزا بالعزلة وهي تمشي وحدها، وبدا لها الفرق كبيرًا بين الشارع وهو نابض بالحياة أثناء النهار، وبينه وهو ساكن نائم أثناء الليل، وكان شعورها بالوحشة يتضاعف مع كل خطوة، وخيل إليها أن صفوف البيوت المتماثلة، والشارع المرصوف المستقيم، والرصيفين الجانبيين ليست إلا منظرًا لمكان صحراوي حيث الجميع موتى، أو اندلعت فيه النار وخلفته مهجورًا.

وفجأة سمعت وقع خطوات خلفها، فاستدارت بسرعة حيث رأت رجلًا يقترب مسرعًا في اتجاهها، ما هي إلا لحظة حتى تبينت فيه جيم، وكان يلوح لها بيده، حتى إذا اقترب منها، قال لها بصوت هامس:

- ليزا!

فوقفت وواجهته قائلة:

- ما الذي جاء بك الآن؟

فأجابها بقوله:

- جئت لأبادلكِ تحية المساء.

- ولكننا تبادلنا هذه التحية منذ لحظات.

- إنني أريد أن نتبادلها كما يجب.. بطريقة أفضل.

- أين سيدتك؟

- أوه، لقد دخلت البيت بعد أن قلت لها إنني أشعر بالعطش وسوف أعود إلى الحانة لأشرب قدحًا من البيرة.

- ولكنها ستعرف أنك لم تذهب إلى الحانة.

- لا، لن تعرف، فسوف تصعد مباشرة لترى طفلها. أردت أن أراكِ وحدكِ يا ليزا.

- لماذا؟

لم يُجب، بل حاول أن يُمسك يدها، ولكنها استطاعت أن تسحبها بسرعة، ثم سارا معًا في صمت حتى بلغا باب منزل ليزا، فقالت له:

- طابت ليلتك.

فقال لها:

- ألا تتمشين معي قليلًا يا ليزا؟

فهمست له قائلة:

- اخفض صوتك وإلا سمعك الجيران.

وفكرت لماذا همست، ولكنها لم تعرف الجواب.

فقال لها مرة أخرى:

- هل ستأتين؟

- لا، لا تنسَ أنك ستستيقظ مبكرًا في الخامسة.

- أوه، لقد قلت هذا لهما حتى لا أذهب معهما إلى الحانة.

فسألته ليزا قائلة:

- أزعمت ذلك لتلحق بي الآن؟

- نعم.

فقالت له فجأة:

- لا، إنني لن أتمشى معك، طابت ليلتك.

- إذَنْ يجب على الأقل أن تبادليني تحية المساء بلطف.

- ماذا تعني؟

- لقد قال توم إنكِ تقبلين بشكل جيد.

وظلت شاخصة البصر إليه دون أن تُجيب، وفى دقيقة طوقها بذراعيه ورفعها في الهواء حتى لامس وجهها وجهه، ثم قبّلها.

ولما أشاحت بوجهها عنه، قال بصوت هامس لاهث الأنفاس:

- ليزا، هاتِ شفتيكِ، أعطني شفتيك يا ليزا.

أدار وجهها نحوه –دون أن تعترض– ثم أطبق بشفتيه على شفتيها، وأخيرًا تخلصت من بين ذراعيه، وفتحت الباب، وانفلتت مسرعة إلى بيتها.

* * *

الفصل السادس

فى صباح اليوم التالي التقت ليزا مع سالي صديقتها وهما في الطريق إلى المصنع الذي تعملان فيه، وكانت هيئة كل منهما تبدو قديمة ومستسلمة، بعد يوم نزهة الأمس. كان شكلهما رث الثياب، وقد تهدلت خصلات الشعر على جبين كل منهما بلا عناية، بينما عقص ما بقي منه إلى الخلف بلا عناية بشريط سائب، ينساب على عنقيهما ويتهدل ساقطًا. ولم يتسع وقت ليزا لوضع قبعتها على رأسها، فأمسكتها بيدها، أما سالي فكانت الدبابيس منحرفة، وكان عليها أن تدفعها للخلف على رأسها كل حين وآخر لمنع سقوطها. إن سندريلا نفسها لم تكن أسوأ حالًا منهما حينما عادت إلى هيئتها العادية بعد أن زال عنها أثر السحر، بل كانت مهندمة ومرتبة بينما سالي كان لديها تمزق كبير في فستانها الرث، وتدلى شراب ليزا فوق حذائها.

وقالت ليزا لصديقتها:

- كيف أصبحتِ يا عزيزتي سالي؟

فقالت سالي بصوت مجهد وهي تدير وجهها الشاحب، وعينيها بتلك الهالات السوداء تحتها:

- لقد أصبحت وأنا أشعر بصداع شديد.

فقالت لها ليزا مواسية:

- أنا أيضًا يكاد رأسي ينفجر.

و أضافت سالي بينما ألم مفاجئ يشق رأسها:

- ليتني لم أشرب كل تلك الأقداح من البيرة أمس.

فقالت لها:

- لا بأس، ستكونين بخير بعد قليل.

ودقت إحدى الساعات تعلن الثامنة صباحًا، فبدأت الفتاتان تجريان حتى لا تتأخرا عن موعد دخول المصنع فيضيع عليهما أجر اليوم، ولما انعطفتا إلى الشارع الذي يقع فيه المصنع، كان هناك خمسون زميلة لهما يهرعن مثلهما حتى لا يتخلفن عن دخول المصنع في الوقت المحدد.

وأمضت ليزا ساعات العمل الصباحية وهي تبدو كحية وميتة، كأنها نوع من الموضة، فقد كانت تشعر كأن رأسها محشو برصاص تسري فيه تيارات كهربائية تهزها في عنف كلما تحركت، وكان فمها جافًّا، ولسانها ساخنًا.

وأخيرًا جاء موعد الغداء، فقالت ليزا لصديقتها سالي:

- هيا يا سالي، الأفضل أن تشربي قدحًا من البيرة، لم أعد أحتمل التعب أكثر من هذا.

ودخلا الحانة المواجهة للمصنع حيث شربت كل منهما قدحًا كبيرًا من البيرة، ثم تنهدت ليزا، وقالت:

- الآن فقط شعرت بالراحة.

- وأنا أيضًا، آه، لقد ظفرت به أخيرًا، ألم أقل لكِ ياليزا، لقد حدثني بذلك ليلة أمس.

- من تعنين يا سالي؟

- أعني أن هاري قالها أخيرًا.. قال كلمة الزواج.

فابتسمت ليزا، وقالت لها:

- ألم يكن في هذا الصباح متسع لمثل هذا الحديث؟

- هذا ما حدث.

- وهل كان جادًّا حينما عرض عليكِ الزواج؟

أجابتها سالي ببعض التركيز:

- بالتأكيد، إن هذه الأمور لا تحتمل المزاح، ألم أقل لكِ يا ليزا كثيرًا إنني سأظفر بوعد الزواج قبلكِ.

فقالت ليزا وهي تفكر:

- نعم.

- بهذه المناسبة، أنصحكِ يا ليزا بأن تقبلي توم زوجًا لكِ، إنه شاب لطيف مهذب.

قالتها سالي بكل اهتمام.

فأجابت ليزا في شيء من الحدة:

- سأتزوج الرجل الذي يهواه قلبي، وليس لأحد أن يتدخل في أمر كهذا.

- حسنًا يا ليزا، أرجو ألا تغضبي، فأنا لم أقصد أن أتدخل في شؤونك الخاصة.

- إذَنْ لماذا تحدثيني في أمر الزواج؟

- حسنًا، لقد اعتقدت أنكِ قبلت الزواج منه حين رأيتك توافقين على الاشتراك معه في الرحلة أمس.

- لقد ألح هو في ذهابي معه، ولم أكن راغبة في ذلك.

- حسنًا، وكذلك ألح هاري عليَّ.

- أنا لم أقل أنكِ فعلتِ.

فقالت سالي في صوت غاضب منهية الكلام:

- أوه، وهل في ذلك عيب؟

وعادت ليزا إلى عملها في المصنع وقد جعلتها البيرة تستعيد نفسها، وعادت إلى العمل من دون صداع، وفيما عدا بعض الإحساس بالكسل فلا بأس من فسوق اليوم السابق. واستأنفت العمل وهي تستعيد في ذاكرتها أحداث اليوم السابق. وكانت كلما تذكرت شيئًا طالعها في أعماق الخيال وجه بلاكستون وتصرفاته.. فتذكرت كيف كان يسير بجوارها في طرقات الغابة، هيمنته أثناء الوجبات، وكيف كان يغني ويضحك، وينتصر في لعبة جوز الهند، ثم تذكرت رحلة العودة في نهاية اليوم وكيف جلس بجوارها بجسمه الضخم، ثم كيف أرسل يده القوية الخشنة لتمسك يدها، بينما كان توم يطوق خصرها بساعده، وهكذا برز اسم توم للمرة الأولى خلال تسلسل تفكيرها، وكان واضحًا أن شخصيته توارت في ظل شخصية الآخر. وتذكرت أخيرًا كيف سارت في طريقها إلى البيت في سكون الليل، ثم كيف سمعت وقع أقدام خلفها، وكيف لحق بها جيم حيث رفعها بيديه وقبلها.

وتصاعدت الدماء حارة إلى وجنتيها، فتلفتت حولها لترى هل تراها إحدى الفتيات العاملات معها.

ووجدت ذكريات الأمس تتجمع في هذه الصورة الأخيرة، في اللحظة التي احتواها فيها بين ذراعيه.. وخُيِّل إليها أنها لا تزال تشعر بخشونة لحيته تضغط على فمها، ثم شعرت كأن قلبها ينمو ويضخم في صدرها، وإذا بأنفاسها تلهث، وإذا هي تلقي برأسها إلى الوراء كأنما تستعد لتستقبل شفتيه، وسرت الرجفة في جسمها كأنما تحول خيالها إلى حقيقة.

وسألتها إحدى زميلاتها:

- لماذا ترتجفين يا ليزا؟ هل تشعرين بالبرد؟

وتوهجت وجنتا ليزا بينما تحطمت تأملاتها، وقالت لزميلتها:

- لا، ليس كثيرًا، بل، يا للعجب! إن حبات العرق تتساقط من جبيني.

- ظننت أنكِ أُصبتِ بالبرد أثناء رحلة أمس.

- لقد رأيت صاحبكِ أثناء حضوري إلى المصنع صباح اليوم.

واضطربت ليزا قليلًا، ولكنها أسرعت تقول:

- مَن تقصدين؟ أنا ليس لي أصحاب.

- إنه توم بالطبع. لقد كان بادي البهجة والسرور.. ماذا فعلتما أثناء الرحلة؟

- لا شيء.. فليس بيننا أي شيء.

- اللعنة! أنتِ لا تقولين الكثير.

وحينما دق جرس المصنع معلنًا انتهاء ساعات العمل، نهضت الفتيات العاملات، وخرجن في طابور طويل، ثم وقفن في جماعات صغيرة خارج أبواب المصنع يتبادلن الحديث، قبل أن يتفرقن في مختلف الطرق المؤدية إلى بيوتهن.

وبينما كانت ليزا وصديقتها سالي في طريقهما إلى البيت، أشارت سالي مسرورة إلى إعلان كبير عن مسرحية في مسرح قريب وقالت لها:

- انظري، هذه مسرحية جديدة.

فقالت ليزا:

- كم أرغب في أن أرى هذه المسرحية.

ووقفت الصديقتان، وقد تشابكت ذراعاهما، وراحتا تتأملان الملصق المتألق، وكان يمثل غرفتين بينهما ممر، وفى إحداهما رجل ميت مُلقى على الأرض، وبالقرب منه وقف رجلان يتنصتان خلف الباب وقد ارتسم الرعب على وجهيهما، بينما وقف شاب في الممر يطرق باب الغرفة من الخارج، وقالت سالي وقد تضاعف انفعالها:

- انظري، إن الرجلين قتلا ذلك الآخر.

- نعم، إن أي أحمق يمكنه أن يفهم هذا، ولكن.. من هو هذا الشاب الذي يطرق الباب؟

- أليست مسرحية جميلة؟ سوف أطلب من هاري أن يدعوني إلى مشاهدتها.. نعم.. سوف أفعل، أنا أريد أن أراها، وكثيرًا ما وعدني هاري بالذهاب معي إلى المسرح.

ثم استأنفتا السير إلى أن تركت ليزا صديقتها ومضت إلى منزلها، وكانت تعلم أنها سوف تمر على بيت بلاكستون فسألت نفسها: «ترى هل أراه الآن؟».

وبينما هي تمشي ببطء، فوجئت برؤية توم قادمًا في اتجاهها، وبدفعة مفاجئة تحولت عائدة بسرعة حتى لا تلتقي به عائدة إلى الطريق الذي جاءت منه، ولكنها سرعان ما تبينت حماقتها، فاستدارت مرة أخرى، ومضت في الطريق إليه وهي تسأل نفسها: «هل رآني أو لاحظ هذه الحركة التي قمت بها؟».

ولكنها فوجئت باختفائه من الشارع، فأدركت أنه لم يرها، وأنه دخل أحد المنازل لزيارة صديق له.

وأسرعت في مشيها إلى البيت، ولكنها لم تملك نفسها من النظر إلى حيث يسكن جيم، وفجأة رأته واقفًا في مدخل البيت ينظر إليها وابتسامة على شفتيه، وقالت له عندما تقدم إليها:

- لم أكن أعرف أنك تقف هنا يا مستر بلاكستون.

- لكني كنت أعرف أنكِ سترفعين رأسكِ لتنظري إلى حيث أسكن أثناء مرورك أمام البيت، لقد رأيتكِ اليوم قبل هذه اللحظة.

- لا؟ متى؟

- لقد مررت وراءكِ وأنتِ واقفة مع صديقتكِ تشاهدين الإعلان عن المسرحية.

- أنا لم أرك.

- نعم، أعرف أنكِ لم تريني، وقد سمعتك وأنتِ تعبّرين عن رغبتك الشديدة في مشاهدة المسرحية.

- نعم.. هذا ما حدث.

- حسنًا، سوف أصحبك إليها.

- أنت؟

- نعم أنا.. لِمَ لا؟

- أنا أود ذلك، لكن ماذا تقول زوجتك لو عرفت؟

- إنها لن تعرف.

- ولكن الجيران سيعرفون.

- لا، لن ندعهم يروننا ونحن نذهب.

وكان يتكلم بصوت هامس حتى لا يسمعه أحد من الواقفين في الشارع، ثم استطرد فقال:

- تستطيعين أن تقابليني عند باب المسرح.

- لا، لا أستطيع أن أذهب معك، إنك رجل متزوج.

- اللعنة! ماذا في هذا؟ هل في ذهابك إلى المسرح ما يعيب؟ ثم إن زوجتي لا تستطيع أن تذهب معي؛ لأن أعباءها المنزلية لا تسمح لها بمثل هذه الفرصة.

وغمغمت ليزا كأنها تحدث نفسها:

- فى الحقيقة أنا متشوقة لمشاهدة هذه المسرحية.

وكانا وهما يتبادلان الحديث قد وصلا إلى بيتها، فلما اقتربا منه قال جيم:

- حسنًا، قابليني هذا المساء يا ليزا لتخبريني بما استقر عليه رأيكِ.

- لا، إنني لن أخرج هذه الليلة.

- ليس في خروجك أي ضرر، سوف أنتظرك.

- لا تتعب نفسك بالانتظار؛ لأني لن أخرج.

- حسنًا، لكن هذه المسرحية ستنتهي يوم السبت القادم، وأنا مُصرّ على مشاهدتها، فإذا أردت أن تشاهديها معي، فيجب أن تكوني عند باب المسرح في منتصف الساعة السادسة، وهناك ستجدينني في انتظاركِ.

فعادت تقول في عناد:

- لا، لن أذهب.

- حسنًا، سأنتظركِ على كل حال.

- قلت لك لن أذهب، فلا تتعب نفسك في الانتظار.

ثم دخلت البيت وأغلقت الباب خلفها.

عندما انتهت ليزا من تجهيز شاي العصر، كانت أمها لا تزال في الخارج تؤدي أعمالها اليومية في خدمة البيوت، شعرت ليزا بالوحدة وهي تشرب الشاي وحدها، فلم يسعها إلا أن تحمل أدوات الشاي واللبن المكثف والخبز المدهون بالزبد ثم تمضي وتجلس على عتبة الباب. وهبطت امرأة أخرى الدرج ورأت ليزا فجلست بجوارها تبادلها الحديث.

وقالت ليزا لجارتها وهي تنظر إلى رأسها المضمد:

- ماذا فعلت برأسك يا مسز ستانلي؟

فاحمرّ وجه المرأة وقالت:

- أصبت في حادث ليلة أمس.

- أوه، إني آسفة! كيف وقع هذا الحادث؟

- وقعت على كوة الفحم فجرحت جبهتي.

- حسنًا، ربما.

- هل تريدين الحقيقة؟ لقد تبادلت مع زوجي بضع كلمات عنيفة أدت إلى شجّ رأسي بسيخ المدفأة، ولكن أرجو أن تكتمي هذا الخبر يا ليزا؛ فلست أحب أن يعرف الجيران أن زوجي يضربني، هل تفعلين؟

فقالت ليزا بتأكيد:

- بالتأكيد، ولكني لم أكن أعرف أن زوجكِ من نوع الرجال الذين يضربون زوجاتهم.

قالت مسز ستانلي بلهجة اعتذار:

- فى الحقيقة إنه وديع كالحمل عندما يكون في حالته الطبيعية، فإذا شرب وأسرف إلى حد السكر، فإنه ينقلب إلى وحش آدمي فاقد الإدراك.

فقالت ليزا متسائلة:

- ومع ذلك فإنه لم يمضِ على زواجكما وقت طويل.

- لم يمر على زواجنا غير ثمانية عشر شهرًا، وإنه لأمر يدعو إلى الأسف، هكذا قال لي طبيب المستشفى الذي ضمد جرح رأسي، نعم.. قال لي كيف يشج زوجك رأسك بهذه القسوة وأنتِ متزوجة حديثًا؟ والواقع يا عزيزتي ليزا أن الدماء كانت تنساب بغزارة على وجهي وكأنها تندفع من صنبور، وأؤكد أن ستانلي – زوجي– فزع من هذا المنظر، وقد هددته بإبلاغ الأمر إلى مركز الشرطة فاشتد فزعه، وأخذ يستعطفني ويتوسل إليَّ ألا أفعل حتى لا يُحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، فقلت له: إنك تستحق هذا الحكم كي لا تعود إلى مثلها.. ثم تركته وانصرفت عنه.. ولكن –ليغفر الرب لي– فما كنت أعتزم أن أشكوه حقًّا لرجال الشرطة، فأنا أعلم أنه لم يكن في وعيه حينما ضربني، فهو في العادة أودع من الحمل في حالته الطبيعية.

وابتسمت بتأثر تام وهي تقول هذا.

فقالت ليزا:

- إذَنْ ماذا فعلتِ؟

فقالت مسز ستانلي:

- ذهبت إلى المستشفى كما قلت لكِ، وهناك قال لي الطبيب: إن جرحكِ خطير أيتها المرأة الطيبة.. ولما ذكرت له أن زوجي هو الذي ضربني برغم أنه لم يمر على زواجنا غير عام ونصف، سألني وهو يحدّق في عيني: هل كنتِ مخمورة أيتها السيدة؟ فأجبت بأنني لم أكن مخمورة كما يظن، ولكني تعودت أن أشرب بضعة أقداح من البيرة في أوقات متفرقة من اليوم.. والواقع أنني بعد التعب في العمل بالمصنع طوال اليوم أشعر بحاجتي إلى قدح من البيرة، وهناك طبعًا فرق كبير بين هذا وبين السُّكر، وأعتقد أنه لا توجد في الدنيا امرأة متمالكة لوعيها مثلي، سواء أشربت أم لم أشرب.. نعم.. ومع هذا فقد كان زوجي الأول لا يذوق الخمر.. لقد كان ملاكًا.. نعم كان ملاكًا.

وتوقفت مسز ستانلي عن الحديث فجأة، ثم التفتت إلى ليزا، واستكملت حديثها قائلة:

- لقد كان يختلف عن زوجي الثانى هذا.. كان رجلًا عرك الحياة واستمتع بحلوها دون مرها.. كان سيدًا مهذبًا.

وكانت تلفظ الكلمة الأخيرة من فمها كأنها تستمتع برنينها، وعادت تقول:

- نعم.. كان سيدًا مهذبًا ومتدينًا مسيحيًّا.. لقد رأى أيامًا سعيدة في صباه وشبابه، وكان مثقفًا يدرك أضرار الخمر، ولهذا عاش لاثنين وعشرين سنة دون أن يشرب.

وفى تلك اللحظة وصلت أم ليزا، وقالت لمسز ستانلي بلهجة مهذبة:

- مساء الخير يا مسز ستانلي.

فردت عليها المرأة بمثل لهجتها:

- مساء الخير يا مسز كيمب.

فعادت أم ليزا تقول في عطف:

- كيف حال رأسكِ الآن؟

- أوه، كان يؤلمني بشدة، حتى لم أكن أعرف ماذا أفعل.

- إني واثقة أن زوجكِ نادم الآن وخجلان من نفسه، فلست أنتِ التي تُعامَلين هكذا.

فقالت مسز ستانلي:

- الحقيقة يا مسز كيمب أن ضربه لي لم يؤلمني كما آلمتني شتائمه، فأنا أستطيع أن أتحمل الضرب كأي امرأة أخرى، كما أنني أستطيع أن أصمد للمعركة وأبادله اللكمة بثلاثة أضعافها، كثيرًا ما ورّمت له عينه وسوّدت ما حولها، ولكني أعترف بأني لا أستطيع مجاراته في السباب، فإن الألفاظ التي قالها تجعل وجهي يحمرّ كلما تذكرتها، والحقيقة أني لم أتعود أن أسمع من زوجي الأول مثل هذه الألفاظ، فقد كنت أعيش معه في حياة مترفة وعيش رغيد.. كانت أرباحه في الأسبوع تتراوح بين جنيهين وثلاثة جنيهات، وقد قلت له.. لزوجي الثانى هذا السليط: كيف يتلفظ إنسان مهذب بهذه الكلمات البذيئة؟

وقالت مسز كيمب متفلسفة:

- إن لكل زوج طباعه الخاصة وأخطاءه، فلا يوجد أبدًا الزوج المثالي، ولكن.. معذرة يا مسز ستانلي، فإني لا أستطيع أن أقف طويلًا في هذا الجو الرطب.

فسألت مسز ستانلي في إشفاق:

- ألا يزال الروماتيزم يؤلمكِ؟

- يؤلمني جدًّا.. إن ليزا تدلك ساقي كل يوم بزيت الكافور، ولكن الآلام لا تزول أبدًا.

وظلت ليزا –بعد دخول أمها– جالسة تتبادل الحديث مع مسز ستانلي، وبعد لحظات انصرفت المرأة تاركة ليزا وحدها، فبقيت جالسة في مكانها لا تكاد تفكر في شيء، ولا تكاد ترى شيئًا، وإنما تستمتع بنسمات الليل المنعشة، وفجأة أقبل عليها بضعة صبيان معهم الكرة والمضارب، وشرعوا يستعدون للعب أمامها، ثم خلعوا معاطفهم ورموها عند نهايتي الملعب. واستعدوا للبدء ثم تقدم واحد منهم إليها وقال:

- هيا يا صديقتي القديمة، تعالي وشاركينا اللعب. هل تفعلين؟

- لا يا بوب، إنني متعبة.

- هيا.

- قلت لك.. لا.

كانت دائخة بالأمس، ولم تجتز هذا بعد.

وقالت ليزا له:

- سأصفعك على وجهك.

وعندما سُئلت مرة أخرى قالت:

- اتركني وحدي، ممكن؟

- ليزا، إننا نحتاجكِ كعضو ثالث في فريقنا.

وأردف صبي آخر قائلًا في وقار مصطنع:

- لو كنت في مكانكِ لما أسرفت في الشراب يا ليزا.

ثم أخذ يقلد ترنح السكارى وهو يستطرد قائلًا:

- إن الإسراف في الشراب عادة ذميمة تؤدي إلى الإدمان.

ولو كانت ليزا في حالتها الطبيعية، لانطلقت إليهم وتبادلت معهم بعض اللكمات، ولكنها كانت تشعر بالملل في تلك اللحظة، وبالرغبة في الجلوس في سكينة وهدوء، لذا تركتهم يثرثرون حتى أصابهم الملل، فتركوها وبدأوا يلعبون.

وأخذت هي تراقبهم فترة من الوقت، ولكن أفكارها لم تلبث أن شردت عنهم، ثم راحت تتركز حول رجل طويل عريض، قوي الجسم، كانت تفكر مرة أخرى في جيم.

وتمتمت لنفسها: «سيكون أمرًا جيدًا اصطحابي إلى المسرح.. إن توم لم يدعوني إلى مشاهدة مسرحية من قبل».

وعادت فتذكرت أن جيم قال لها إنه سيخرج الليلة لمقابلتها، ولعله الآن في الطريق إليها، فاذا جاءها فسوف تخبره – طبعًا– أنها لن تذهب معه إلى المسرح، ولكنها لن ترى مانعًا في تبادل الحديث معه كما تتبادله مع أي رجل أو شاب من الجيران.

إلا أنها لم تستطع أن تنكر لنفسها أنها تستمتع بالحديث معه.. وسوف تستمتع مرة أخرى برفض طلبه إذا هو كرر عليها الدعوة، ولكنه لم يحضر كما وعد.. فما الذي منعه من الحضور؟

وفجأة قالت لصبي كان يلعب بالقرب منها:

- اسمع يا بيل.. هل تعرف ذلك الساكن المدعو بلاكستون؟

- نعم أعرفه.. لماذا؟ إنه يعمل في المصنع الذي أعمل به.

- ألا تعرف أين وكيف يقضي أمسياته؟ إنني لم أره في الشارع مرة بعد الغروب.

- لا.. لا أعرف.. ولكني رأيته يدخل هذا المساء إلى حانة الأسد الأحمر، وربما لا يزال هناك، لكني لا أعرف.

إذَنْ فهو لن يحضر إليها هذا المساء، وله العذر.. ألم تقل له إنها لن تغادر البيت، ولكن.. أما كان يجب أن يحضر ليتأكد –على الأقل– من أنها لن تخرج.

وقالت لنفسها في حنق:

- لو أني قلت هذا لتوم لحضر على كل حال.

وفجأة سمعت والدتها تناديها من الداخل، فردت عليها قائلة:

- سأحضر حالًا يا أمي.

وقالت لها والدتها تعاتبها:

- لقد انتظرتكِ نصف ساعة لتقومي بتدليك ساقي بزيت الكافور.

فقالت ليزا:

- لماذا لم تناديني بدلًا من انتظاري؟

- لقد ناديتكِ عددًا لا يُحصى من المرات حتى التهب حلقي.

- لكنني لم أسمعك.

- بل قولي إنكِ لا تريدين أن تسمعيني، أليس كذلك؟ إنكِ لا يهمكِ أن أعيش أو أموت بالروماتيزم.. إني أعرف أنكِ تضيقين بي.

ولم تجب ليزا، وإنما أخذت زجاجة الزيت، وسكبت قليلًا منها على قطعة قماش في يدها، ثم بدأت في تدليك ساقي أمها وركبتيها، بينما أخذت الأم تشكو وتتوجع من كل حركة تقوم بها ليزا وتقول لها:

- لا تدلكي بهذه القوة، إنكِ ستسلخين جلد ساقي!

فإذا بدأت ليزا تدلك برفق، اعترضت والدتها على ذلك، وقالت ساخطة:

- ما هذا التدليك الخفيف المائع، إنه لن يكون ذا فائدة على الإطلاق، أنا أعرف أنكِ لا تريدين إجهاد نفسكِ، نعم.. ولكن أي فرق كبير بيني وبينكِ.. فعندما كنت في مثل سنكِ، كنت أخدم أمي بكل جوارحي.. أما أنتِ.. غفر الرب لكِ.. فلا تهتمين قط بما أعاني من آلام الروماتيزم.

وأخيرًا انتهت ليزا من تدليك ساقي أمها، ثم أوت إلى الفراش لتنام بجانبها.

* * *

الفصل السابع

مر يومان، ثم جاء صباح يوم الجمعة، ونهضت ليزا مبكرة كي تصل إلى المصنع في الموعد المحدد، ولكنها لم تلتقِ –كالمعتاد– بصديقتها سالي في الطريق، ولم تجدها عند باب الدخول حين وصلت إليه، ورن الجرس أخيرًا، وبدأت الفتيات في الدخول دون أن تظهر سالي. وتعجبت ليزا لتخلف صديقتها، وخطر ببالها أنها قد تكون مريضة، وبينما كان العامل المختص بتوزيع بطاقات الدخول يوشك أن يغلق النافذة، إذا بسالي تصل لاهثة الأنفاس، والعرق يتصبب من جبينها، وقالت لليزا وهي تمسح وجهها المبلل بالعرق بمئزرها:

- لقد كدت أتخلف عن الحضور.

فقالت لها ليزا:

- ظننت أنكِ لن تحضري اليوم.

فقالت سالي:

- حسنًا، إنني استيقظت من النوم متأخرة هذا الصباح لأني سهرت ليلة أمس طويلًا.

- وأين كنتِ؟

- كنت مع هاري نشاهد المسرحية.. أوه يا ليزا.. إنها حقًّا مسرحية مدهشة. لم أرَ في حياتي مسرحية في مثل روعتها وجمالها، إنها تجعل شعر الرأس يقف من فرط الرعب! تصوري أنهم يمثلون على المسرح منظر رجل يشنق؟ لقد شعرت كأن شيئًا باردًا يسري في كياني وأنا أشاهد هذا المنظر.

ثم بدأت تحكي لليزا كل شيء عن المسرحية، وتصف لها مشاهدها وحوادثها المثيرة، بما تخللها من دماء، ورعد وجريمة وحشية ودوي الرصاص والقنبلة، ومنظر القطار المتحرك، القاتل، والبطل، والرجل المضحك. وكانت تردد فقرات من حوار المسرحية محاولة تقليد أدائها – بشكل خاطئ- وتلوح بيديها وتومئ، وقد تضرج وجهها وتألقت عيناها، وكانت ليزا تنصت إلى هذا

كله في شيء من الملل والسخرية، لم تكن الفقرة قد أثارت اهتمامها حقًّا. ثم قالت لها أخيرًا:

- إن من يسمعكِ يا سالي يظن أنكِ لم تذهبي مرة واحدة في حياتك إلى المسرح.

- فى الحقيقة أنني لم أرَ في حياتي شيئًا رائعًا مثيرًا كهذه المسرحية.. صدقيني واعملي بنصيحتي.. اذهبي مع توم لمشاهدتها.

- أنا لا أريد أن أذهب! وإذا ذهبت فسوف أذهب وحدي.

- لن يكون في ذهابكِ وحدكِ أي متعة.. لقد كنا أنا وهاري جالسين جنبًا إلى جنب، وذراعه تطوق خصري.

- حسنًا، لا أريد أن يطوقني أحد، ليس هذا هدفي.

- أنا أحب ذلك، سوف يتم زواجنا بعد ثلاثة أسابيع، فقد قال هاري.. نعم قال لي ونحن في المسرح: إننا سنتزوج في مكتب التسجيل، ولكني قلت له: يجب أن يُعلن زواجنا في الكنيسة وتقرأ مراسم الإعلان هناك، فهذا ما يجب أن يكون، وستقرأ هذه المراسم يوم الأحد التالي، وطبعًا ستحضرين لسماعها، أليس كذلك يا ليزا؟

- نعم، لا مانع.

وفى أثناء العودة إلى البيت، أصرت سالي على الوقوف أمام لوحة الإعلان عن المسرحية، لكي تشرح لليزا ما يتعلق بالمنظر المرسوم في الإعلان.

وقالت لها ليزا أخيرًا في ضيق وملل:

- لقد أمرضتني بثرثرتك عن هذه المسرحية، سوف أذهب إلى البيت.

ثم تركتها في منتصف الشرح وانصرفت.

وقالت سالي لإحدى الصديقات الواقفات معها:

- لست أدري ماذا جرى لليزا؟ إن أعصابها متوترة دائمًا في الفترة الأخيرة.

فقالت الصديقة:

- أوه، إنها مجنونة!

وعلقت سالي قائلة:

- حسنًا، نعم إنها تبدو أحيانًا طائشة هوجاء.. مسكينة ليزا.

وكانت ليزا وهي في طريقها إلى البيت تفكر فيما سمعته عن المسرحية، وأخيرًا هزت رأسها في عنف، وقالت:

- لا أريد مشاهدة هذه المسرحية اللعينة!.. نعم.. لو رأيت جيم فسأقول له هذا، واللعنة عليَّ إذا لم أقل له!

ورأت جيم في تلك اللحظة، إذ كان واقفًا يدخن وقد استند بظهره إلى جدار بيته، وأدركت ليزا أنه رآها، ولكنها تعمدت أن تمر أمامه دون أن تكلمه أو تلتفت إليه لترى ماذا سيفعل، وكم كان أسفها إذ تجاهلها بدوره، وحاولت عبثًا أن تقنع نفسها بأنه لم يرها، ثم سمعته يهتف باسمها بصوته العميق:

- ليزا!

فالتفتت إليه متصنعة الدهشة ثم قالت له:

- لم أرك وأنت واقف هنا.

فغمز بعينه وقال وهو يسير معها:

- لماذا تظاهرتِ يا ليزا بأنكِ لم تريني أثناء مروركِ أمامي؟

- لماذا؟ قلت لك إنني لم أرك.

- كذب! هل أنتِ غاضبة مني؟

- ولماذا أغضب منك؟

وحاول أن يُمسك يدها، ولكنها سحبتها منه بسرعة، فقد كانت تتوقع منه هذه الحركة، وظلا سائرين يتبادلان الحديث، ولكن جيم لم يذكر شيئًا عن المسرحية، وتعجبت ليزا، خطر ببالها أنه نسي الأمر، وأخيرًا لم يسعها إلا أن تقول له:

- إن سالي ذهبت لمشاهدة المسرحية ليلة أمس.

فلم يزد على أن قال:

- أوه!.

وشعرت ليزا بالضيق، ثم قالت له:

- حسنًا، يجب أن أذهب فورًا إلى البيت.

فاستوقفها قائلًا:

- لا، لا تذهبي الآن، إني أريد أن أتحدث معكِ.

فقالت وهي تحاول أن تستدرجه إلى الحديث عن المسرحية:

- فيم تريد أن تحدثني؟

فقال مبتسمًا:

- لا أدري على وجه التحديد.

فقالت:

- طاب مساؤك.

ثم تركته وانصرفت غاضبة وهي تحدث نفسها قائلة: «اللعنة عليَّ، لا شك أنه نسي».

فى الساعة السادسة من مساء اليوم التالي خطر ببال ليزا فجأة أن هذه الليلة هي الأخيرة لعرض المسرحية الجديدة المثيرة، ثم قالت لنفسها: «عجيب أمر هذا المدعو جيم بلاكستون! من كان يصدق أنه يعاملني هكذا؟ مستحيل أن تخطر مثل هذه المعاملة الباردة ببال توم.. اللعنة عليّ إذا أنا تحدثت مرة أخرى مع هذا البلاكستون!.. يكفي أنه أضاع مني الفرصة لمشاهدة هذه المسرحية. من كان يصدق أنه يلح عليَّ لأقبل دعوته لرؤيتها، ثم ينسى كل شيء؟».

وكانت تشعر بالأسى والمهانة وهي تفكر أنها رفضت دعوة جيم بشكل قطعي، كان من الصعب أن تفهم لماذا، ثم عادت تستطرد في الحديث إلى نفسها فقالت:

- لقد قال إنه سينتظرني خارج باب المسرح، ترى هل سيفعل؟ أم أنه نسي هذا الوعد أيضًا؟ سوف أذهب وأرى هل يقف في انتظاري.. نعم سأذهب.. فإذا وجدته فسوف أدفع ثمن التذكرة لنفسي حتى أجعله يرى أني في غير حاجة إلى ماله.

وبعد أن ارتدت أجمل ملابسها، قررت ألا تجعل جيرانها يعرفون أنها ذاهبة إلى المسرح، وعبرت لذلك ممرات بين عمارات سكنية كبيرة حتى وصلت إلى شارع وستمنستر بريدج، وبعد لحظات وجدت نفسها أمام المسرح، ثم فوجئت بصوت جيم يهتف بها من خلفها قائلًا:

- كنت في انتظاركِ منذ أكثر من نصف ساعة.

وقالت له بجفاء عندما التفتت إليه ووجدته يبتسم:

- ما هذا الذي تقول؟ إنني لم أجئ لأشاهد المسرحية معك، من تحسبني؟

- إذَنْ مع من ستشاهدينها؟

- وحدي.

- قرني! لا تكوني حمقاء!

وشعرت ليزا بإهانة بالغة، وقالت له:

- أهكذا تعاملني؟ سوف أعود إلى البيت، لماذا لم تحضر ليلة أول من أمس؟

- لقد أخبرتني أنكِ ستمكثين في البيت.

وشمت سخافة الرد واستطردت:

- لماذا لم تكرر دعوتك لى ليلة أمس؟

- لقد خشيت أن أفتح موضوعها معكِ فتصرين على الرفض.

وهنا قالت والدموع تكاد تطفر من عينيها:

- الواقع أنك.. وحش خبيث!

- هيا يا ليزا.. لا تتضايقي، أنا لم أقصد أي جريمة.

ثم أمسكها مسندًا خصرها بلطف إلى ساعده القوي، ومضى معها نحو باب صالة العرض، وبرغم انحدار دمعتين من زاويتي عينيّ ليزا نازلة إلى أنفها، فقد شعرت بالبهجة والرضى، وتركته يقودها إلى حيث يريد.

وكان بالباب عدد كبير من الناس ينتظرون عند الباب، وأحست ليزا بالسرور عندما رأت زنجيين يساعدوهما في قضاء وقت الانتظار، حيث كان

الزنجيان يغنيان ويرقصان، ويصنعان أشكالًا بوجوههما، بينما وقف الناس يشاهدونهما في وقار، وكأنهم علية القوم يستمعون استماع الملوك إلى (دي رينيسكي) الأوبرالي العظيم، إلا أنهم كانوا كرماء في التصفيق، وفى تقديم أنصاف البنسات بعد كل دور.

وبعد أن خرج الزنجيان تقدم الغلمان من باعة الصحف لتوزيع برامج الحفلة وصور المسرحية، ثم تلى هؤلاء ثلاث فتيات صغيرات قدمن بعض أغنيات عاطفية ونلن المزيد من أنصاف البنسات. وأخيرًا سرت الحركة في طابور المنتظرين الشبيه بالأفعى، وسمعت الأصوات وراء الباب، اقترب الناس بعضهم من بعض، أخبر الرجال النساء أن يبقين بالقرب وأن يتماسكن، كان هناك الكثير من الفزع، وفجأة فُتحت الأبواب، فتدفق المنتظرون كأنهم نهر متفجر.

وارتفع الستار بعد نصف ساعة، وكانت المسرحية مثيرة حقًّا، مما جعل ليزا تجلس، وقد نسيت صاحبها تمامًا، وركزت نظراتها ومشاعرها على المنظر الذي بدأت به المسرحية، كانت تراقب الحوادث بأنفاس لاهثة، وبجسم يرتجف من فرط الانفعال، وكادت تصيح من الرعب حين رأت منظر الشنق، فلما أُسدل الستار على الفصل الأول، تنهدت وراحت تمسح قطرات العرق عن وجهها وقالت وهي تعطي يدها لجيم:

- انظر كيف ارتفعت حرارتي.

فقال وهو يتحسس يدها:

- نعم، أنتِ كذلك بالفعل.

فقالت وهي تحاول سحبها منه:

- اترك يدي الآن.

فقال في هدوء تام:

- ليس بهذه السرعة.

وعادت تقول في لهجة جادة:

- يا قرني! قلت لك اترك يدي.

ولكنه لم يتركها، ولم تحاول هي أن تبذل أي جهد في سحبها منه.

وفى المشهد الثانى انطلقت ليزا تضحك من حركات الممثل الكوميدي، وكان رنين ضحكاتها أعلى من رنين ضحكات الآخرين مما جعلهم ينظرون إليها ويقول بعضهم لبعض:

- إنها شديدة السرور والبهجة.

ولما بدأ مشهد وقوع الجريمة، أخذت تقضم أطراف أظافرها وتألقت حبات العرق على جبينها في قطرات كبيرة، وفى غمرة انفعالها، صاحت تحذر الضحية قائلة بأعلى ما استطاعت: «انتبه!».

وسرت همهمة من الضحك بين المتفرجين كان لها الأثر الأكبر في تخفيف حدة التوتر العصبي الذي كان مخيمًا عليهم حيث كان الجميع يحبسون أنفاسهم وهم يشاهدون المجرمين أثناء تنصتهم وراء الباب، ثم تسللهم نحو الضحية تسلل النمور نحو الفريسة.

وسرت الرجفة في جسم ليزا، واضطربت، وألقت بنفسها على جيم، فطوقها بساعديه وهمس في أذنها قائلًا:

- لا تخافي يا ليزا. إن الأمر على ما يرام.

وأخيرًا قفز القاتل، وكان هناك شجار انتهى بموت الضحية البائسة، وبعدئذٍ شاهد المتفرجون المنظر المرسوم في الإعلان، منظر الشاب –ابن الضحية– وهو يطرق باب الغرفة التي وقف فيها القتلة المجرمون أمام جثة القتيل.. وأخيرًا هبط الستار بين الهتاف والتصفيق، ووقف البطل الشاب بقبعته العالية يرد تحية الجماهير بالانحناء، بينما وقف القتيل أيضًا بملابسه غير المهندمة يستقبل عطفهم، أما المجرمون الأشرار فاستُقبلوا بعاصفة من الصفير واللعنات والاستهجان. بينما انحنى المتوحشون كما لو كانوا يحبون ذلك.

وقالت ليزا وهي تضغط نفسها بالقرب من جيم:

- كم أشعر بالمتعة والسرور، أنا لا أعرف كيف أشكرك يا جيم.

فاحتضنها قليلًا، وكأنما أدركت هي فجأة أنها تجلس بجانبه كما كانت صديقتها سالي جالسة مع خطيبها، وكانت تشعر–مثل سالي– بالبهجة.

وكانت فترة الاستراحة بين الفصول قصيرة، فما لبث الستار أن رفع من جديد، وعاد الممثل الكوميدي يثير عاصفة أخرى من الضحك بخلع ملابسه وتعريض ملابسه الداخلية للمشاهدين، ثم جاء بعده المنظر الأخير حيث الانفجارات والدويّ والحجرة المظلمة.

وعندما انتهت المسرحية، غادر جيم المسرح مع ليزا، قال وهو يلعق شفتيه:

- إني أشعر بالعطش..هيا ندخل هذه الحانة هناك.

وقالت ليزا:

- أنا أيضًا لساني جاف كقطعة خشب!

وذهبا إلى الحانة، وهناك اكتشفا أنهما جائعين، ورأيا بعض المقبلات من لفافات السجق فأكلاها وابتلعاها ببضعة أقداح من البيرة، ثم أشعل جيم البايب، وسارا معًا في الطريق حتى اقتربا من شارع وستمنستر بريدج، وعندئذ اقترح جيم أن يدخلا حانة أخرى ليشربا المزيد من أقداح البيرة قبل أن يعود كل منهما إلى البيت، فقالت ليزا:

- إنني لو فعلت فسوف أسكر.

فضحك جيم قائلًا:

- وماذا لو سكرت؟ إن غدًا يوم الأحد، وفى استطاعتك أن تنامي براحتك.

- حسنًا، أنا لا أمانع، هيا نشرب، ولتكن ليلة من ليالي العمر.

وعند مدخل الحانة قالت متراجعة:

- اسمع يا جيم، من المحتمل أن يكون في هذه الحانة بعض سكان شارعنا، وسوف يروننا معًا؟

- ليس هناك أحد من الجيران، لا تخشي شيئًا.

- أنا لا أحب أن أدخل وأخشى ما سيحدث.

- حسنًا، يمكننا أن ندخل إحدى المقصورات الخاصة، وتأكدي أن أحدًا من الجيران لن يرانا.

ووافقت أخيرًا، ودخلا الحانة.

- قدحين من البيرة إذا سمحت يا آنسة.

أمر جيم.

ولكن ليزا عارضت قائلة:

- لا، لا، إنني لن أستطيع أن أشرب أكثر من نصف قدح.

فقال جيم:

- أنا أعرف تمامًا أن في استطاعتك شرب كل ما سيقدم لكِ.

وعندما أوشكت الحانة أن تغلق أبوابها، غادراها وسارا في الشارع العام الذي تتفرع منه الشوارع الجانبية، فلما اقتربا من مقعد بين شجرتين، أشار إليها جيم قائلًا:

- لنجلس هنا قليلًا.

- لا، إن الوقت متأخر، ويجب أن أعود إلى البيت.

ولكنه أمسك يدها وقادها نحو ذلك المقعد، ثم قال وهو يطوق خصرها بذراعه:

- إنها ليلة جميلة فلا يجب أن نحرم أنفسنا من الاستمتاع بها.

فقالت بلهجة إحدى الممثلات في المسرحية:

- دعني وشأني أيها الشرير!

وضحك جيم عاليًا، وتملصت هي منه، وظلا جالسين هكذا –في سكون– فترة غير قصيرة. وكانت البيرة قد وصلت إلى رأس ليزا، وهواء الليل الدافئ ملأها بتسمم مزدوج.

فقد شعرت بالذراع حول خصرها، وبجسده الضخم الثقيل وهو يضغط جانبها، وقد جربت مرة أخرى الإحساس الفضولي كما لو كان قلبها على وشك الانفجار، وقد صدمها شعور مضاد ومؤلم جعلها تقريبًا تشعر بالمرض. وبدأت يداها ترتجفان، وتسارعت أنفاسها عندما فكرت أنها تختنق.

وبشبه إغماءة ترنحت في اتجاه الرجل، وسرت في جسمها رجفة باردة من رأسها إلى أخمص قدمها، ومال جيم عليها وأخذها بين ذراعيه الاثنتين، وضغط بشفتيه على شفتيها في قبلة طويلة ملتهبة.

وأخيرًا أدارت رأسها بعيدًا وقد لهثت أنفاسها، وندت عن صدرها آهة أخرى، ثم عادا يجلسان في صمت مرة أخرى.

وامتلأت ليزا خلال السكون المطبق عليهما بفيض من السعادة الغريبة يغمر قلبها، وشعرت فجأة أنها تتمنى لو تنفجر ضاحكة بهيستيريا، ولكنها تمالكت نفسها حتى لا تفسد هذا الجو العاطفي الغارق في سكون الليل.

ودقت ساعة هناك معلنة مرور ساعة بعد منتصف الليل، فاضطربت ليزا، وقالت:

- يا إلهي! إن الساعة تجاوزت منتصف الليل، يجب أن أعود إلى البيت في الحال.

فقال لها جيم وهو يضغطها أكثر إليه:

- ليس هناك ما هو أمتع من هذه الجلسة يا ليزا، أنتِ تعرفين أنني.. أنني أحبكِ إلى حد القتل!

فنهضت واقفة، وجذبت يده ليقف معها، ثم قالت له:

- لا أستطيع أن أمكث أكثر من ذلك. هيا تعالَ.

ومشيا معًا في صمت عميق، ولم يكن هناك أي أحد سواء أمامهما أو خلفهما، لم يكن يضع ذراعه حولها الآن، ولكنهما كانا يمشيان جنبًا إلى جنب، منفصلين إلى حد ما، وكانت ليزا هي من تكلم أولًا:

- الأفضل أن تذهب أنت إلى شارع فيرستريت من ناحيته الأخرى عن طريق الكنيسة، وسأذهب أنا عن طريق الممر بين العمارات الكبيرة؛ حتى لا يرانا أحد.

وأضافت هامسة:

- لا يرانا معًا.

فأجابها:

- حسنًا يا ليزا، سوف أفعل كل ما تشيرين به عليَّ.

ووصلا أخيرًا إلى الممر الذي كانت تتحدث عنه، وكان ممرًّا طويلًا مظلمًا ضيقًا بين جدارين أصمين وبين الجهة الخلفية من المصانع، وكان يؤدي إلى

الجزء العلوي من فيرستريت.

وكان هناك في منتصف مدخله حاجز حديدي يمنع دخول العربات أو الجياد إليه، فلما اقتربا من ذلك المدخل، إذا برجل يخرج من الممر نحو الطريق العام، فاستدارت ليزا بوجهها بعيدًا، ثم تساءلت هامسة بعد ابتعاد الرجل:

- ترى هل رآنا؟ انه يلتفت وراءه نحونا.

فقال جيم متسائلًا:

- وماذا لو رآنا؟

فأجابت:

- إنه من سكان شارعنا، ولست أعرفه، ولكنى أعرف البيت الذي يقيم فيه.. هل تعتقد أنه رآنا؟

- لا، أعتقد أنه حتى لو رآنا لن يستطيع أن يتعرفنا في هذا الظلام.

- حسنًا، كان يتلفت حوله، إذا كان قد رآنا فسيعرف الشارع كله.

- حسنًا، إننا لم نفعل شيئًا مسيئًا.

ثم بسطت يدها لتصافح جيم وهي تتمنى له ليلة طيبة.

فقال لها:

- إن الممر مظلم للغاية.. الأفضل أن أصحبكِ فيه قليلًا.

- لا، يجب ألَّا تفعل، بل يجب أن تذهب أنت في الطريق الآخر.

- ولكنه مظلم للغاية، وربما يحدث لكِ مكروه.

فأجابت:

- لا، اذهب واتركني.

ثم دخلت الممر، واستدارت تواجهه، وبينهما أحد الحواجز الحديدية وأردفت تقول وهي تمد يدها:

- طابت ليلتك أيها الديك العجوز.

وأخذ يدها بين يديه وقال:

- أتمنى لو لم تذهبي وتتركيني يا ليزا.

- قرني! يجب أن أذهب.

وحاولت أن تجذب يدها منه، ولكنه أمسك بها بقوة، مسندًا إياها على قمة الحاجز.

- اترك يدي.

قالت ليزا، ولكنه لم يتحرك، ولكنه نظر في عينيها بثبات، وذلك جعلها غير مرتاحة. كانت نادمة على خروجها معه.

- اترك يدي.

قالت وكأنها تكرر كلامها من قائمة محدودة.

قال أخيرًا:

- ليزا.

- حسنًا، من هذا؟

أجابت وهي ما زالت تشد على يديه بقبضتها إلى أسفل.

وقال بهمس:

- ليزا، هل لكِ؟

- هل لي في ماذا؟

قالت وهي تنظر للأسفل.

- حسنًا يا ليزا، هل لكِ في...؟

- لا.

قالت ليزا، فمال عليها وهو يكرر:

- هل لكِ؟

لم تتكلم، ولكنها استمرت في الضرب على يده.

- ليزا.

قال مرة أخرى، وقد بدا صوته يصبح أجش وأعمق:

- ليزا، هل لكِ؟وظلت صامتة، تنظر إلى بعيد، ومستمرة في جذب قبضتها. فنظر إليها للحظة، بينما توقفت هي عن الضرب على يده، ورفعت رأسها

تنظر إليه بفم نصف مفتوح. وفجأة هز نفسه وأطبق قبضته مانحًا إياها خبطة متأرجحة عنيفة في البطن.

- تعالي.

قال لها، وانزلقا معًا على الأرض في ظلام الممر.

* * *

الفصل الثامن

كانت مسز كيمب قد تعودت في أيام الآحاد أن تنهض من النوم في ساعة متأخرة من الصباح، وإلا ما استطاعت ليزا أن تظل نائمة بدورها حتى ساعة متأخرة أيضًا، وعندما استيقظت فركت عينيها، واستجمعت مشاعرها وبدأت بالتدريج تتذكر كيف ذهبت إلى المسرح في الليلة السابقة، وفجأة تذكرت كل شيء.

ومدت ساقيها وتمطت، ثم تنهدت في ارتياح عميق، وشعرت بقلبها ممتلئ، كانت تفكر في جيم، وسرت في بدنها نشوة الحب الغامر، فأغمضت عينيها، وتخيلت قبلاته الحارة، ورفعت ذراعيها كأنما تريد أن تطوق بهما عنقه وأن تضمه إلى صدرها، وبلغ من قوة خيالها أنها كادت تشعر بخشونة لحيته على وجهها، وبذراعيه القويتين الثقيلتين حول جسدها، وابتسمت لنفسها وهي تتنفس بعمق، ثم شمرت عن أكمام رداء النوم عن ساعديها، إنهما مجرد قطعتين من العظام بلا عضلات كثيرة عليهما، وراحت تنظر إلى بياضهما الشفاف وقد بانت تحته عروقها الزرقاء، ولكنها لم تلاحظ احمرار كفيها وخشونتهما وقذارتهما، ولا تآكل أظافرها بسبب الأعمال اليدوية التي تقوم بها في المصنع.

ونهضت أخيرًا من فراشها، وراحت تنظر إلى نفسها في المرآة الكبيرة الموجودة فوق حاجز المدفأة، ثم بدأت تمشط شعرها بيد واحدة وهي تبتسم لنفسها، وكان وجهها صغيرًا نحيلًا، ولكنه ناعم البشرة، أبيض شفاف، مشرب باللون الوردي على خديها، وكانت عيناها واسعتين سوداوين كشعرها الناعم.

لقد امتلأ قلب ليزا بالسعادة.

ولم تشعر بالرغبة بعد في ارتداء ملابسها، بل رغبت في الجلوس بهدوء للاستغراق في التفكير، ولهذا جمعت شعرها في عقدة صغيرة وارتدت ثوبًا منزليًّا فوق ثوب النوم، ثم جلست على مقعد بجانب النافذة وراحت تتلفت حولها في أنحاء الغرفة.

كانت مظاهر الزينة في الغرفة مركزة فوق المدفأة، وأهم هذه المظاهر مجموعة من الفاكهة: كمثرى، تفاح، أناناس، عناقيد من العنب، والكثير من حبات البرقوق السمينة، المصنوعة من الشمع بمهارة كبيرة، كما كانت الموضة في هذا العهد المجيد، كانت ملونة بمهارة، التفاح بالأحمر، والعنب بالأسود اللامع، وأوراق خضراء زمردية كانت موزعة هنا وهناك في لمسة أخيرة، وكانت موضوعة على حامل له قاعدة من الأبنوس، وفوقها غطاء زجاجي مزخرف الحواشي ليمنع تسرب الغبار إليها وله حواف حمراء فخمة.

وتركزت نظرات ليزا على هذه الحلية المنزلية للحظات وقد سال لعابها شوقًا إلى الخوخ، ثم تحولت نظراتها إلى زهريتين ورديتين مع زهور زرقاء في المقدمة، محاطة الحافة بحروف قوطية من الذهب منقوش عليها (هدية من صديق).

كانت هذه منتجات من العصر الفني المتأخر. أما المسافات البينية فكانت مشغولة بآنية صغيرة، وكؤوس، وصحون، ذهبية من الداخل مع منظر لمدينة من الخارج تحيط بها عبارات: (هدية من كلاكتون من البحر)، أو بدلًا من ذلك (تذكار من مارجيت)، من بين هؤلاء يوجد الكثير مكسورين، ولكنهم أُلصقوا بالصمغ، ومن المعروف أن الخزف في أعين المتذوق يفقد قيمته في حال وجود شرخ أو اثنين.

وأخذت بعد ذلك تتأمل الصور المختلفة المعلقة على الجدران، كانت الصور مصفرة قليلًا، في إطارات محلاة بالصدف وشرائط المخمل. كانت الصور تُظهر أناسًا غرباء بملابسهم ذات الموضة القديمة، النساء بأردية ذات أكمام، متناسبة مع أشكالهن، نساء صارمات بشعر مصفف بعناية في المنتصف وينسدل على كل جانب، ذقون وأفواه حازمة، مع أعين صغيرة كأعين الخنازير ووجوه متغضنة.

أما الرجال فكانوا يبدون في ملابس الأحد غير المريحة، صلبة وليست سهلة في موقفهم الحرج، بشوارب ضخمة وذقون محلوقة وبشفاه عليا معتنى بها بحرص.

كانت هناك صورة أو اثنتان محاطة بورق ذهبي.

وكان بين هذه الصور الكثيرة صور والد ووالدة مسز كيمب، وكانت هناك بعض الصور لزوجين مخطوبين أو زوجين متزوجين حديثًا، السيدة جالسة والرجل يقف خلفها واضعًا يده على الكرسي، أو الرجل هو الجالس بينما السيدة تقف ويداها على كتفيه. ومن كل جوانب الغرفة، على المدفأة، أو معلقين فوقها، على الحائط وفوق السرير، كانوا يحدقون بوجوههم إلى الغرفة، بوعيهم الذاتي مثبتين في مكانهم الصلب غير المريح.

أما الجدران نفسها فكانت مغطاة بورق حقير مهمل مزخرف من أرقام الكريسماس كادت ألوانه تُمحى بمرور الزمن. كانت هناك صورة طولية لجندي يصافح يد رفيق مهزوم ويلوح بذراعه بتحدٍّ لمجموعة من العرب المحدثين. كانت هناك صورة للكرز أصبحت تقريبًا سوداء مع الزمن والقذارة. وكان هناك تقويمان لسنوات سابقة، واحد بصورة ملونة للماركيز (لوم)، جذاب للغاية ويرتدي ملابس ظريفة، وهو معبود مسز كيمب منذ وفاة زوجها، أما التقويم الآخر فهو البورتيريه اليوبيلي للملكة، في بعض الأوقات يفقد كرامته بسبب شارب قامت ليزا في لحظات غير وقورة بتلطيخه بواسطة الفحم.

وكان أثاث الغرفة يتكون من حوض للاغتسال، وخزانة للثياب لها أدراج، وفي أعلاها قاعدة توضع عليها الأطباق وأدوات الطعام والآنية الفخارية حيث لا يمكن العثور على غرفة بامتنان، وبجانب الفراش كان لا يوجد إلا مقعدان للمطبخ ومصباح.

ونظرت ليزا إلى هذا كله بعين الرضى، ثم نهضت ووضعت دبوسًا في أحد أركان «الماركيز النبيل» لتمنعه من السقوط، مخدوعة قليلًا ببعض الحلي، ثم بدأت تغتسل، وبعد أن ارتدت ملابسها، تناولت بضع قطع من الخبز المدهون بالزبد، وابتلعت قدحًا كبيرًا من الشاي البارد، ثم خرجت إلى الشارع.

وحينما رأت بضعة صبيان يلعبون الكريكيت تقدمت إليهم وقالت:

- أريد أن أشترك معكم في اللعب.

وصاح نصف دستة من الصبية بصوت واحد في سرور:

- مرحبًا بكِ يا ليزا.

وقال رئيس الفريق:

- عليكِ أن تقفي في مركز الدفاع.

فقالت ليزا في اصرار:

- تمهل عزيزي سكوت، عندما ألعب الكريكيت أكون بين فريق الهجوم.

- لا، لن تلعبي في مركز الهجوم.

قال رئيس الفريق مكررًا، الذي حصل على ميزة أن يضع نفسه في مرمى المقدمة، وهو ما زال عند المرمى.

أجابت ليزا:

- حسنًا، عندئذ لن ألعب.

وعندئذ صاح اثنان أو ثلاثة من أعضاء الفريق:

- يا قرني! إذا لم تلعب ليزا معنا فلن نلعب.

- حسنًا، أنا موافق.

قال رئيس الفريق عندما أخذت مضربه.

- ولكنكِ لن تبقين طويلًا يا سيدتي.

قالها وأرسل اللاعب القديم وأخذ الكرة بنفسه. كان شابًّا لم يعانِ من قبل من التخلف عن اللعب.

- حسنًا.

صاحت دستة من الأصوات عندما مُررت الكرة.

وضربت ليزا الكرة بمضربها فسقطت في كومة المعاطف التي تكون المرمى. وجاء رئيس الفريق ليأخذ دوره ولكن ليزا أبعدت المضرب عنه وقالت:

- يا قرني! إنها مجرد محاولة واحدة.

فرد رئيس الفريق بحدة:

- أنتِ لم تقولي مطلقًا أنكِ تريدين محاولة.

فردت ليزا:

- بل قلت.

- حسنًا، أنا موافق.

قالها رئيس الفريق مكررًا.

وما كاد اللعب أن يبدأ، حتى وقعت عيناها على توم مقبلًا نحوها، ولما كانت تشعر في هذا الصباح بالرضى عن الحياة والأحياء جميعًا، فقد هتفت قائلة له:

- تعال يا توم وارم لنا بالكرة، فهذا الشاب لا يستطيع.

فقال هذا الشخص:

- حسنًا، أنا كنت ألعب جيدًا بأي حال.

- آه، أنت لا تجيد هذه اللعبة، إنها محاولة بالكرة، حسنًا، لا أحد يعرف ماذا ستسفر عنه المحاولة بالكرة.

وبدأ توم في رمي الكرة ببطء وسهولة. وبذلك استطاعت ليزا أن تؤرجح مضربها وأن تضرب بدقة. وكانت تجرى بصورة جيدة أيضًا، واستطاعت أن تحرز اثنتي عشرة نقطة، عندئذ قاطعها اللاعبون:

- أنتِ تلعبين وحدك، ماذا تحاولين أن تفعلي؟

- أنتِ تفسدين لعبتنا.

فقالت:

- أنا لا أهتم، أنا حصلت على اثنتي عشرة نقطة، وهذا أكثر مما تستطيعون الحصول عليه، سأذهب الآن ومعي ما حققته، هيا يا توم.

وانضم إليها توم، واستعاد رئيس الفريق أخيرًا مضربه،واستمرت المباراة، ووقفا بجوار باب بيت يتبادلان الحديث والابتسامات في بهجة بينما كان توم يقف أمامها،. وقالت ليزا:

- أين كنت مختفيًا خلال الأسبوع يا توم؟ أنا لم أرك منذ مدة طويلة.

- لم أكن مختفيًا، بل كنت أخرج إلى الشارع كعادتي، وقد رأيتك أكثر من مرة دون أن تريني.

- حسنًا، إذَنْ لماذا لم تأت إليَّ وتتحدث معي عندما رأيتني؟

- إنني لا أريد أن أثقل عليكِ بنفسي يا ليزا.

- يا قرني! أنت أحمق وأبله، ماذا حدث بيني وبينك؟

- كنت أعتقد أنكِ لا تريدين أن تريني، ولهذا حاولت الابتعاد عنكِ.

فنظرت ليزا إليه في دهشة وقالت:

- عجبًا! إنك تتحدث كأني أصبحت أكرهك، ولكني لا أرى أي سبب يدعو إلى كراهيتك، ولو كان هذا شعوري نحوك، لما وقفت معك الآن أبادلك الحديث.

وكانت ليزا تدرك في نفسها أنها لا تحب توم وإن كانت لا تكرهه أيضًا، ولكنها شعرت في ذلك الصباح بأن في استطاعتها أن تحب العالم كله بما فيه توم، مثله مثل الآخرين، ولذلك نظرت له في مودة جعلت لسان الشاب ينعقد عن الكلام من فرط السعادة.

وتحولت أخيرًا بنظراتها نحو بيت جيم، حيث رأت فتاة قريبة منها في السن تخرج من الباب، وقد بدت ملامح وجهها قريبة من ملامح وجه جيم، فالتفتت إلى توم وقالت له وهي تشير إلى الفتاة:

- قل لى يا توم، أليست هذه ابنة بلاكستون؟

- نعم، إنها هي.

قالت ليزا:

- إذَنْ سأذهب وأتحدث معها.

ثم تركت توم، ولحقت بالفتاة التي كانت في طريقها إلى الشارع العام وقالت لها:

- أنتِ بولي بلاكستون، أليس كذلك؟

فقالت الفتاة:

- هذا أنا.

هذا ما قلته لنفسي، لقد قال لي والدكِ ذات يوم: ألم تري ابنتي بولي؟، - فقلت له: لا، لم أرها.. فقال لي: إنكِ إذا رأيتها فسوف تعرفينها لأنها قريبة الشبه مني.. وهذا ما حدث يا عزيزتي بولي.. فقد عرفتكِ عندما رأيتكِ.

- لقد قالت أمي إنني أشبه أبي تمامًا، ولست أشبهها في شيء، وقال أبي إن هذا من حسن الحظ، فلو أن الأمر كان بالعكس لفكر في تطليق أمي.

وضحكت الفتاتان، وعادت ليزا تقول وهي تنظر إلى إناء في يد بولي:

- إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟

- إني في طريقي لشراء كمية من الآيس كريم لتكون حلوى بعد الغداء، فقد ذكر أبي أن الحظ السعيد كان في جانبه أمس، وأراد أن يحتفل اليوم بشراء هذه الكمية من الآيس كريم لإسعادنا.

- سأذهب معكِ إذا أحببتِ ذلك.

- هيا.

وسارتا معًا وقد أصبحتا صديقتين تتأبط كل منهما ذراع الأخرى، ومضتا إلى شارع وستمنستر بريدج، ثم توجهتا إلى بائع المثلجات الإيطالي حيث تذوقت كل منهما قليلًا من الآيس كريم قبل الشراء لتريا إذا كانتا ستحبانه، وبعد أن ملأت بولي الإناء بالحلوى المثلجة والمزيد من الآيس كريم الأحمر والأبيض، ثم دفعت ستة بنسات، عادت الاثنتان في الطريق إلى البيت، وفجأة هتفت بولي وهي تشير إلى الناحية الأخرى من الطريق:

- هذا هو أبي.

وخفق قلب ليزا بعنف، وتضرج وجهها، وخامرها –فجأة – شعور عنيف بالعار، ولذلك أطرقت برأسها حتى لا تقع نظراتها عليه، ثم قالت:

- يجب أن أنصرف بسرعة إلى البيت لأرى هل أمي في حاجة إليَّ.

وقبل أن تجيب بولي بشيء، انزلقت ليزا مبتعدة عنها، ودخلت بسرعة إلى بيتها.

لم تكن أمها قد نهضت بعد.

واستقبلتها أمها بوجه مكفهر غاضب بمجرد أن دخلت ليزا الغرفة قائلة:

- أخيرًا أتيت يا....يا..

- ماذا جرى يا أمي؟

- ماذا جرى؟ هل ترين أن هذه طريقة لطيفة تعاملين بها سيدة عجوز مثلي؟ ألست أنا أمكِ أيضًا؟

- ماذا حدث الآن؟

- لا أريد أن تتكلمي معي، ولا أريد أن أنصت إليكِ، اتركيني وشأني، والروماتيزم الذي يشقيني والصداع الذي يتعسني، لقد كاد رأسي ينفجر من عنف الصداع هذا الصباح، وقد خيل إليَّ أن عظام رأسي قد انفجرت وسال مخي على الأرض! ولما استيقظت لم أجد أحدًا يقدم لي كوبًا من الشاى. وأخيرًا نهضت وأجهدت نفسي في إعداد كوب الشاي ورأسي لا يكف عن إيلامي كأنه بيضة فاسدة، وقد كان من المحتمل أن ينقلب المصباح الموضوع بجانب السرير فيحرق الغرفة ويحرقني وأنا نائمة، أليس كذلك؟

- أنا آسفة يا أمي، لقد خرجت لأتمشى قليلًا، وكنت أظن أني سأجدكِ نائمة عندما أرجع.. أما المصباح فإنني لم أتركه مشتعلًا فكيف يحرق الغرفة؟

فهتفت الأم بحنق:

- عليكِ اللعنة! إني لم أكن أعامل أمي هكذا، ولكنكِ كنتِ ابنة متعبة شريرة منذ دبت الحياة في جسمكِ وأنتِ جنين في بطني! نعم لقد شعرت أثناء حملك بآلام لم تشعر بها أي حامل أخرى، وقد كنتِ شريرة أثناء خروجك من بطني، ولست أنسى كيف كدت أن أفقد حياتي أثناء وضعكِ، ومنذ ذلك اليوم وأنتِ مصدر تعبي وأحزاني، وها أنتِ لا تترددين في تركي لأموت جوعًا وحرقًا، و... و....

وبدأت العجوز تبكي، وضاعت العبارات الأخرى في صوت بكائها.

غابت الشمس وتحول شفق الغروب الأحمر إلى سواد الليل، وأوت مسز كيمب مبكرة إلى فراشها مثل الطيور، بينما ظلت ليزا جالسة تفكر في أشياء كثيرة. كانت تتساءل عن السبب الذي جعلها تتجنب لقاء جيم في الصباح. وتمتمت لنفسها قائلة: «لا شك أني كنت حمقاء!».

وخُيل إليها أنه مضى على أحداث الليلة السابقة أعوام، فقد شعرت كأن ما حدث وقع منذ أمد بعيد، ولم تستطع أن تتبادل الحديث مع جيم طوال اليوم، وكانت تريد أن تتحدث معه طويلًا في أمور كثيرة، وخطر ببالها أنه قد يكون في الشارع، فذهبت إلى النافذة وأطلت منها، ولكن لم يكن هناك أحد. وأغلقت النافذة مرة أخرى وجلست بجوارها، ومضى الوقت وهي تتساءل هل سيأتي لرؤيتها؟ وهل هو يفكر فيها كما تفكر فيه؟ وبدأت أفكارها تختفي تدريجيًّا كأنما انسدل عليها ضباب خفيف، وأطرقت برأسها، ولكنها تنبهت فجأة على رنين طرقات خفيفة، فأرهفت السمع، وإذا الطرقات الخفيفة تتكرر على زجاج النافذة من الخارج، ثلاث أو أربع طرقات، فوثبت واقفة وفتحتها هاتفة في همس: «جيم؟» فسمعت صوته يقول:

- نعم أنا.. تعالي.

ثم أغلقت النافذة، وغادرت الغرفة، وسارت في الممر المؤدي إلى باب البيت، وقبل أن تفتحه بعد أن رفعت مزلاجه الحديدي، إذا جيم يدفعه ويدخل، ثم يغلقه خلفه، ويأخذها بين ذراعيه ويضمها إلى صدره، وقبلته في لهفة وشوق.

- كنت أشعر أنك ستأتي الليلة يا جيم، هكذا حدثني قلبي، ولكنك تأخرت كثيرًا.

- كنت سأحضر من قبل، ولكني اعتقدت أنه سيكون هناك سكان في الشارع.. هيا.. قبليني.

ومرة أخرى ضغط بشفتيه على شفتيها، وكادت ليزا أن يغمى عليها من البهجة.

وقال لها:

- هيا نخرج للتمشية، ما رأيكِ؟

فقالت بصوت هامس:

- هذا ما أريد، ولكن.. الأفضل أن تصل أنت للشارع العام عن طريق الممر بين العمارات، وسأذهب أنا عن طريق الشارع.

فقال لها:

- حسنًا، هذا جيد.

وقبلها مرة أخرى. ثم تحرك خارجًا وأغلق الباب وراءه. وبعد أن عادت ليزا إلى الغرفة لتضع قبعتها على رأسها، عادت إلى الممر، ووقفت خلف باب الخروج للحظة تسترق السمع وتنتهز الفرصة المواتية للخروج دون أن تلفت الأنظار، وفجأة سمعت شخصًا يضع المفتاح في ثقب الباب الخارجي، وقبل أن تتغلب على هذه المفاجأة، فُتح الباب، وبصعوبة وجدت الوقت لتتراجع حتى تجنب نفسها الاصطدام بالباب المفتوح، ودخل أحد سكان الطابق الثاني، وما كاد يراها حتى صاح:

- مَن هناك؟

فقالت وقد تضرج وجهها احمرارًا حتى جذور شعرها، ولكن في الظلام لم يستطع أن يرى شيئًا:

- أنا يا هودجز.. لقد فاجأتني وأنا في طريقى إلى الخروج.. طاب مساؤك.

قالت عبارتها ثم خرجت. مشت هي بالقرب من جدران البيوت وكأنها لص، ولما رآها أحد رجال الشرطة وهي تمر بجواره، استدار إليها وفكر في التقدم منها وسؤالها عن سبب اضطراب خطواتها، ولكنه عدل أخيرًا، وهكذا وصلت ليزا إلى الشارع بسلام، ثم تنهدت بارتياح عندما لمحت جيم واقفًا ينتظرها تحت إحدى الأشجار، وفى الظلال تبادلا القبلات مرة أخرى.

* * *

الفصل التاسع

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من الحب والبهجة، وكانت بعد أن تنتهي من عملها كل يوم، وبعد أن تشرب الشاي، كانت تتسلل خارجة للقاء جيم في المكان والموعد المحددين.

وكان مكان اللقاء عادة بالقرب من الكنيسة الموجودة عند منعطف شارع وستمنستر بريدج حين ينحني نحو النهر، ومن هناك كانا يسيران جنبًا إلى جنب وقد تشابكت ذراعاهما حتى يبلغا مكانًا حيث يمكنهما الجلوس والاستراحة.

وكانا أحيانًا يتمشيان على شاطئ التايمز في منطقة ألبرت، حتى يصلا إلى حديقة باتريسيا العامة، وهناك يجلسان متجاورين على مقعد من جذوع الشجر، يشاهدان الأطفال وهم يلعبون. إن راكبي الدراجات من الفتيات يفضلن حديقة باتريسيا شبه المهجورة على الحدائق الموجودة على الجانب الآخر من النهر، حيث يبدو كافيًا للتنزه، أما ليزا فمع التعصب القديم الطراز لصفها، فإنها تتبع الراكب وتدوّن بعض الملاحظات عنه، ونادرًا ما يكون مكرهًا أن يكون مهذبًا.

وكان جيم وهي، كلاهما، يحب الأطفال حبًّا غريزيًّا، فكان هؤلاء الأطفال، الصغار، المتجمعون كالقنافذ، يتجمعون حولهما حيث يصر بعضهم على التأرجح فوق ركبتي جيم أو تصنُّع الملاكمة الوهمية مع ليزا.

وكانا يعتقدان أنهما بعيدان عن أي شخص من شارع فيرستريت، ولكن حدث رغم هذا، أن شوهدا مرتين من بعض سكان الشارع، ففي المرة الأولى مر أمامهما رجلان يعملان في مصنع فوكسهول القريب، ولم ترهما ليزا حتى اقتربا منها، فتركت ذراع جيم بسرعة، وأطرقت كما تفعل النعامة، متوهمة أن أحدًا لن يراهما ما داما هما لا ينظران إليه. وقالت بصوت هامس بعد ابتعاد الشابين:

- هل رأيتهما يا جيم؟ إنني أتساءل إذا كانا قد لمحانا.

ثم التفتت– غريزيًّا– نحوهما، فإذا هي ترى أحدهما يلتفت إليها في نفس اللحظة، وهكذا عرفت أن أمرهما انكشف، فقالت:

- لقد التفت إلينا.

- نعم، لقد كدت أن أفقد زمام أعصابي وأسرع بالهرب.

فقالت ليزا:

- لقد تصرفنا بحماقة، كان يجب أن نتحدث إليهما، ونزعم أننا التقينا هنا مصادفة حتى لا نثير شكوكهما.

ثم أردفت قائلة بعد صمت قصير:

- هل تظن أنهما سيفضحوننا في الشارع؟

ولم يسمعا من سكان الشارع ما يدل على افتضاح وجودهما معًا في تلك الحديقة، وأكثر من هذا أن جيم التقى مصادفة في الحانة بعد يومين بأحد الشابين اللذين مرا بهما في الحديقة. فلم يظهر في ملامح وجه الشاب ما يدل على أنه تعرف عليهما.

ولكن المرة الثانية كانت أسوأ، وكانت في منطقة ألبرت من شاطئ التايمز، فبينما كانا سائرين هناك، فوجئا بأربعة من سكان الشارع قادمين نحوهما، وغاص قلب ليزا، فلم يكن هناك مجال للهرب، وفكرت ليزا في الاستدارة بسرعة والمشي في الاتجاه المقابل، ولكن لم يكن هناك وقت، ولم يكن هناك شك في أن الرجال الأربعة قد رأوهما وعرفوهما، واستطاعت ليزا بعد جهد أن تهمس لجيم قائلة:

- تشجع!

ثم رفعت صوتها وقالت لأحد السكان الأربعة:

- هيه.. أنتم هناك.. إلى أين أنتم ذاهبون؟

فتوقف الرجال، ووجه أحدهم السؤال نفسه إلى ليزا:

- أنتم الى أين تذهبون؟

- أنا؟ إنني آتية من المستشفى، فقد أصيبت إحدى زميلاتي في المصنع بحالة عصبية، فقررت أن أذهب لزيارتها.

وارتبكت ليزا للحظة في البداية، ولكنها لم تلبث أن تمالكت أعصابها، كانت تكذب ببساطة ومن دون تردد واستطردت تقول:

وبعد أن زرتها إذا بي ألتقي بجارنا المستر بلاكستون، فتبادلنا التحية، - وأخبرني أنه ذاهب إلى مصنع فوكسهول، وطلب مني أن أسير معه قليلًا، فقبلت.

فغمز أحد الرجال بعينه، بينما قال آخر:

- ثم ماذا يا ليزا؟

فانفجرت ليزا قائلة بحدة:

- ماذا تعني؟ هل تظنني أمزح؟

- تمزحين؟ لا، لكنكِ يبدو فقط أنكِ قادمة من المدينة، أليس كذلك؟

- أتظن أنني أمزح؟ لماذا تعتقد أنني أريد أن أمزح معك؟ إن الكذاب لا يصدق أبدًا أي شخص، هذه حقيقة.

- مهلًا يا ليزا، لا تكوني بذيئة.

- بذيئة؟ سوف أضربك في عينك إذا تطاولت عليَّ.

ثم التفتت إلى جيم، وكان واقفًا خجلان، وقالت له:

- هيا.

وتحركا مبتعدين.

وصاح الرجال الأربعة:

- حسنًا، لا تتأخرا كثيرًا في الخارج!

ثم مضوا في طريقهم وهم يضجون بالضحك، ومنذ ذلك الحين، قرر العاشقان أن يلتقيا في مكان أبعد كثيرًا من الشارع الذي يسكنان فيه. فكان كل منهما يمضي وحده حتى يعبر جسر وستمنتستر، ثم يتوجهان منفردين أيضًا إلى الحديقة العامة هناك حيث يرقدان على العشب متعانقين، وهكذا أمضيا أمسيات الصيف.

كانت نسمات الليل في الصيف رقيقة منعشة بعد حرارة الجو أثناء النهار، وكان كل من العاشقين في الحديقة، يتنفس الهواء الطلق بعمق، ويشعر في سكون الحديقة وهدوئها بأنه بعيد عن صخب الحياة في لندن، وكانت ليزا وهي راقدة على العشب بجوار جيم تشعر بأن حبها له ينمو ويتدفق ويملأ

العالم كله، ويسبغ على جميع البشر أستار البهجة والسعادة. لو يستمر هذا الحب إلى آخر لحظة من العمر.

وكانا يظلان في سكون الحديقة حتى تتألق النجوم في السماء، من السماء الزرقاء، حتى يبدأ المساء ويتحول الأزرق إلى الأسود، وتتجمع النجوم بالآلاف فوقهما. ولكن عندما بدأ الجو يميل نحو البرودة، أخذا يشعران ببرودة العشب تحتهما، وبدأا يدركان أن الفترة القصيرة التي يمكثان فيها في الحديقة لا تستحق هذا العناء في قطع الرحلة الطويلة إليها من شارع فيرستريت، ولذلك قررا أن يسيرا – بعد عبور الجسر كما فعلا من قبل – على شاطئ النهر حتى يجدا مقعدًا خاليًا يجلسان عليه، وهناك كانت ليزا تجلس منطوية في صدر حبيبها، بينما هو يلف ذراعيه الكبيرتين حولها. وبدأت أمطار شهر سبتمبر في التساقط، ولكنهما لم يهتما بأمرها، بل ظلا يلتقيان كعادتهما في كل ليلة، ويجلسان على مقعد تحت الأشجار، وكان جيم يضع ليزا –إذا اشتد البرد– على ركبتيه، ويفتح معطفه ويؤويها فيه بينما هي تحيط بذراعيها عنقه مضغوطة بالتصاق إلى جيم، وعرضيًّا كانت تطلق ضحكة سعادة وبهجة.

وكان من الصعب أن يتكلما طول هذه الأمسيات، فماذا سيقول كل منهما للآخر؟، فغالبًا ودون أن يتبادلا كلمة كانا يجلسان في صمت، ساعة بعد ساعة، وقد تلامس وجهاهما واختلطت أنفاسهما، بحيث كان يشعر أحدهما بالأنفاس الحارة للآخر على خديه، وكانت الحركة الوحيدة التي تبدر من أحدهما هي أن ترفع ليزا شفتيها إلى شفتي جيم، أو يهبط هو بشفتيه إلى شفتيها بحيث تلتقيان في قبلة.

وفى بعض الأحيان كانت تستغرق في غفوة خفيفة، فيبقى جيم بلا حراك حتى لا يوقظها، فإذا استيقظت نظرت إليه مبتسمة، بينما هو يميل عليها فيقبلها مرة أخرى، كانا يشعران بالسعادة الكاملة التي تجعل الساعات تمر مسرعة، فإذا أعلنت ساعة (بج بن) منتصف الليل، أفاقا متفاجئين من نشوة الحب، واتخذا طريقهما –على الرغم من رغبتهما- إلى البيت.

كان فراقهما لا ينتهي كل ليلة، فجيم كان كان يرفض أن يتركها من بين ذراعيه، كانت الدموع تتلألأ في عينيه بمجرد التفكير في فراقهما. كان يقول لها:

- سأضحي بأى شيء في مقابل أن نبقى معًا دائمًا.

وكانت ليزا تُجيب بصوت على وشك البكاء:

- لا عليك يا صديقي الشاب، ربما لا يمكننا ذلك الآن، لذلك يجب أن نستمتع جيدًا بما نحن فيه.

وبرغم كل ما بذلاه من جهود للتستر، بدأ سكان شارع فيرستريت يتهامسون عن علاقتهما. في البداية لاحظت ليزا أن موقف النساء في الشارع قد تغير نحوها، فهن لا يبدون ودودات كما كنَّ من قبل، ولا يتبادلن الحديث معها في مرح. كما لاحظت أنهن يتهامسن فيما بينهن إذا رأينها، فإذا اقتربت منهن، انقطع الهمس وتحول إلى ابتسامات، وأحيانًا إلى ضحكات ساخرة بعد مرورها.

وحاولت ليزا لفترة طويلة أن تسخر من ظنونها، وتكذب أوهامها، زاعمة لنفسها أن ملاحظاتها لا تقوم على أساس سليم، بل تنبع من شعورها بوجود هذه العلاقة بينها وبين جيم. أما جيم فكان يؤكد لها أنها واهمة، ولكن الأمر أخذ –بالتدريج– يزداد وضوحًا، مما اضطر جيم إلى الاعتراف أخيرًا بأن علاقتهما أصبحت معروفة لكل سكان الشارع.

وحدث يومًا أن كانت ليزا تتحدث مع بولي–ابنة جيم– وبينما هما كذلك إذ ظهرت مسز بلاكستون على باب بيتها ونادتها، فلما ذهبت الصبية إليها، لاحظت ليزا أن الأم تتحدث في غضب مع ابنتها، وأن الاثنتين تنظران إليها، ولما تلاقت عينا ليزا بعيني مسز بلاكستون، رأت في ملامح وجهها من التجهم ما أفزعها، وحاولت أن تتحدى هذا الشعور، فتقدمت إلى مسز بلاكستون لتبادلها الحديث، ولكن مسز بلاكستون ظلت واقفة في مكانها، متجهمة الوجه، غاضبة بشدة، فلم يسع ليزا إلا أن تراجعت خائفة.

ولما ذكرت لجيم موقف زوجته منها، اسودَّ وجهه، وقال لها وهو يضغط على أسنانه:

- عليها اللعنة!، سوف أؤدبها إذا حاولت أن تجرح شعورَكِ بكلمة واحدة.

فقالت له ليزا:

- لا، لا، حذارِ أن تضربها مهما يحدث منها. هل تعدني بذلك يا جيم؟

- عليها أولًا أن تحذر من الإساءة إليكِ.

ثم أخذ يحدثها عن موقف زوجته منه في الأيام الأخيرة، فقال إنها أصبحت دائمة التجهم والغضب، لا تكاد تتبادل معه الحديث. وحدث عندما عاد من عمله في اليوم السابق أنها أدارت له ظهرها ورفضت أن ترد تحيته، مما جعله يقول لها في غضب:

- ألا يمكنكِ رد التحية عندما أتحدث اليكِ؟

عندئذ ردت عليه التحية بصوت غاضب وهي لا تزال تدير ظهرها له.

ولاحظت ليزا– بعد هذا– أن بولي صارت تتجنبها، فقالت لها ذات يوم:

- ماذا بكِ يا بولي؟ إنكِ لم تعودي تتحدثين معي.. هل قُطع لسانكِ؟

فقالت بولي:

- أنا؟ ليس هناك ما يدعوني إلى الحديث معكِ.

ثم استدارت وأسرعت مبتعدة. وتصاعدت دماء الخجل والمهانة إلى وجه ليزا، وراحت تتلفت حولها لترى هل شاهد أحد هذا الموقف. وكان هناك شابان جالسان على الرصيف أمام بيتهما، فأدركت ليزا أنهما شاهدا المنظر؛ لأنهما تبادلا الغمزات والابتسامات الساخرة.

وبدأت نساء الشارع بعد هذا التعريض بها، فقالت إحداهن لها ذات يوم:

- ما لكِ تبدين هكذا شاحبة الوجه يا ليزا؟

وقالت الثانية:

- لا شك أنكِ تجهدين نفسكِ في العمل أكثر مما ينبغي.

وأضافت الثالثة قائلة:

- يبدو أن الحياة الزوجية لا تناسب ليزا، هذا هو السر.

فقالت بصوت مختنق:

- ماذا تقصدين؟ إنني غير متزوجة، وليس في نيتي أن أتزوج.

- إن ليزا تتمتع بكل مباهج الزواج دون أعبائه!

صاحت ليزا غاضبة:

- اللعنة عليَّ إذا كنت أدرك ما تعنين.

- طبعًا.. طبعًا.. ومن قال لكِ إنكِ تدركين شيئًا؟

وعلقت زميلتها قائلة:

- إنها بريئة كالطفل الوليد، أليس كذلك يا ليزا؟

- هل كنتِ في لندن منذ وقت طويل، هل؟

وكانوا يتكلمون كالجوقة، وهكذا انهالت التعليقات اللاذعة والتلميحات البذيئة على ليزا من كل جانب، فوقفت الفتاة ذاهلة، مرتبكة لا تدري ماذا تقول. وقالت إحدى النساء:

- إني لا أصدق أن ليزا لا تعرف من أسرار الحياة الزوجية أمرًا أو أمرين!

فصاحت أخرى في جرأة واضحة:

- عزيزتي ليزا، إنني أحبكِ إلى درجة.. الموت.. ولكن خذي حذركِ من زوجته.. فقد سمعنا أنها تنوي بك شرًّا.

وانفجرت النساء في الضحك. بينما ظلت ليزا تقف مضطربة، لا تدري كيف تنجو من هذا الموقف العصيب. وانضم إلى النساء عندئذ بضعة رجال فقال أحدهم ساخرًا:

- كل ما نرجوه منكِ يا ليزا أن تكوني على حذر، هذا كل شيء.

- أليس من الواجب يا ليزا أن توزعي عواطفك علينا جميعًا بالعدل؟ إن من حقي أن أخرج معكِ ذات ليلة.. فمتى؟ نعم.. يجب أن يخرج كل منا معكِ بالدور.

فصاحت ليزا بصوت مختنق من شدة الألم:

- إنني لا أدري عمَّا تتحدثون. يبدو أنكم جميعًا فقدتم الصواب.

ثم استدارت ومضت في طريقها إلى البيت.

من بين كل الأشياء التي حدثت كان زواج سالي. ففي أحد أيام السبت خرج من شارع فيرستريت موكب الزواج، وكان يتكون من سالي في ثوب الزفاف المصنوع من المخمل البنفسجي، وقد تألق وجهها بالسعادة وهي تسير بجوار هاري، الذي كان يبدو كالمختنق العصبي بسبب الياقة العالية المنشاة المحيطة بعنقه، كانا يسيران ذراعًا في ذراع ومن ورائهما أم سالي وخالها، متشابكي الذراعين أيضًا، وفي نهاية الموكب شقيق هاري وأحد أصدقائه.

وكان الموكب قد بدأ من منزل سالي بين عزف الأبواق المبهجة وتهاني سكان الشارع، فلما وصل إلى منتصف فيرستريت، وبينما دخلوا طريق « ويستمنسر بريدج » واقتربوا من الكنيسة ، حتى ساد الصمت بين الزوجين، وسالت حبات العرق على وجه هاري مما زاده شعورًا بالتعذيب بسبب الياقة اللعينة. ثم اقترح أحدهم أن يمضي الموكب، بكامل هيئته، إلى الحانة الواقعة أمام الكنيسة مباشرة ليشربوا بضعة أقداح من البيرة قبل دخول الكنيسة.

ولأنها كانت مناسبة نمطية اتخذ أعضاء الموكب مكانهم في مقصورة خاصة بالحانة، وطلب خال سالي، وكان رجلًا كريمًا، ستة أقداح من البيرة على حسابه، بينما قال أحد الأصدقاء لهاري:

- هل تشعر بالتوتر العصبي يا هاري؟

فقال هاري بصوت الرجل الذي تعود أن يتزوج كل يوم في حياته:

- لا، إن الجو حار فقط.

وقالت أم سالي لها وهي ترفع قدح البيرة عاليًا:

- أرجو لكِ يا آنسة سالي حياة زوجية سعيدة، وهذه آخر مرة أناديكِ بكلمة آنسة!

وأضاف خال سالي قائلًا:

- أنا أرجو أن تكون زوجة طيبة مخلصة كما كانت مخلصة لأبيها.

فقالت السيدة الطيبة:

- نعم، أعتقد أن المرحوم زوجي كان سعيدًا في حياته معي، لم يشكو مني أبدًا؛ فقد كنت أؤدي واجبي نحوه على أفضل وجه.

وقال شقيق هاري:

- حسنًا يا رفاق، لقد آن لنا أن نذهب إلى الكنيسة، لنشرب جميعًا نخب هاري وزوجته باعتبار ما سيكون.

فقالت أم سالي:

- ليشملهما الرب بعنايته.

بعد ذلك دخلوا الكنيسة، وبينما هم يتقدمون نحو المذبح في سكون ووقار، كان القس الشاب الشاحب الوجه يهبط الدرجات القليلة التي تؤدي إلى المذبح من المنبر، وكانت للبيرة أثرها المهدئ في نفوسهم المضطربة، كان هاري وسالي يفكران أنهما في مزحة كبيرة لذلك كانا يتبادلان الابتسامات أثناء تلاوة مراسم الزواج، وفى الأجزاء التي كانت توحي بالعنف كان كل منهما يلكز الآخر في ضلوعه، وعندما طلب من هاري تقديم الخاتمين، أخذ يبحث في جيوبه مضطربًا مما جعل شقيقه يقول هامسًا:

- اللعنة! هل أضعت خاتمَي الزواج؟

على الرغم من كل شيء فقد تم الأمر، ثم أخذت سالي قسيمة الزواج وناولتها لهاري الذي طواها بعناية ووضعها في جيبه، وغادر الجميع الكنيسة إلى الحانة مرة أخرى ليحتفلوا بالمناسبة السعيدة.

وفى المساء توجهت ليزا وبعض الصديقات لتهنئة سالي حيث ظلت مقيمة بغرفة في البيت الذي كانت فيه من قبل، وشربوا في صحة العروس والعريس حتى اعتقدوا أن الوقت قد حان للذهاب.

* * *

الفصل العاشر

وجاء شهر نوفمبر، واختفى بمجيئه الآن الجو الصحو، واختفى معه الكثير من حلاوة الحب بين ليزا وجيم، لقد ظلا يخرجان كل مساء إلى شاطئ النهر، ولكنهما كانا يجدانه باردًا وكئيبًا، ويُخيم عليه الضباب الخفيف أحيانًا مغطيًا ضفاف النهر، فتبدو مصابيح الشارع خافتة الضوء، تكاد لا تُرى في الظلام، وأحيانًا يسقط المطر رذاذًا يرسل البرودة والارتجاف في روحيهما، وقد يمر عليهما هناك –على فترات قليلة- أحد من المشاة يحمل مظلة ويمشي بخطى سريعة لا يلوي على شيء؛ لأن كل همه أن يصل إلى بيته للاحتماء فيه من البرد والمطر، وقد تمر عربة مسرعة يتناثر على جوانبها رذاذ من الوحل، أما المقاعد التي على الشاطئ فكانت مهجورة، فلم يكن هناك من يحتلها غيرهما. ما عدا بضعة مقاعد متفرقة منزوية، أوى إليها بعض المشردين البائسين الذين لا مأوى لهم، وقد تكور كل منهم على نفسه، ودس رأسه في صدره واستغرق في النوم كأنه جثة هامدة.

وكثيرًا ما كانت الأوحال تلصق أطراف ثوب ليزا بساقيها، كما كانت رطوبة الجو تملأ جسدها فترتعد لشدة البرد، وترتفع بجسدها حتى تتجمد، ومن أجل التماس الدفء كانت تزيد من التصاقها بجسد جيم، وفى بعض الأحيان كانا يفضلان الجلوس في حجرة الانتظار الخاصة بركاب الدرجة الثالثة في محطة واترلو، أو محطة شيرنج كروس، ولكن الجلسة هناك كانت أبعد ما تكون عن متعة التمدد على العشب في الحديقة العامة، أو الجلوس على مقاعد الشاطئ في ليالي الصيف.

وكانت حجرة الانتظار بالمحطة دافئة، ولكن الحرارة المنبعثة من المدفأة كانت تجعل بخار الماء يتصاعد من ملابسها المبتلة ويبعث في الغرفة رائحة كريهة. وكان المصباح البترولي يشع ضوءه في أعينهما، وكانا يكرهان أن المسافرين والمنتظرين يدخلون ويخرجون، وكلما فُتح الباب هبت إلى الغرفة لفحة هواء بارد، كما كرها الضجيج وصياح الحمّالين والحُرَّاس والعمال وصفير القطارات وهدير العجلات والآلات. في نحو الحادية عشرة مساء كانت

القطارات المنطلقة تصبح أقل، فيتاح للعاشقين نوع من السكينة، ولكن بعد أن تكون نفس كل منهما قد اضطربت وامتلأت بالسخط والامتعاض.

وذات ليلة كانا جالسين في حجرة الانتظار بمحطة واترلو، وكان الضباب خارج الغرفة كثيفًا، الضباب الأصفر لشهر نوفمبر، وكان يخيم على كل شيء، وينساب إلى الحجرة فيملأ صدور الجالسين فيها بالضيق والملل. ويجعل في الفم طعمًا مقرفًا والأعين محدقة. وفى حوالي الحادية عشرة والنصف هدأت المحطة قليلًا، ولم يبق على الرصيف غير بعض المسافرين الغارقين في معاطفهم، يذهبون ويجيئون في انتظار القطار الأخير، وغير حمال أو اثنين واقفان يتثائبان، وفى داخل الحجرة، كان جيم وليزا جالسين في صمت تام وكأنما يجثم على عقليهما شعور ثقيل بالتعاسة والبؤس. وكانت ليزا جالسة بالقرب من جيم وقد اعتمدت بمرفقها على ركبتيها ووضعت وجهها بين يديها.

وقالت أخيرًا دون أن ترفع عينيها:

- ليتني حافظت على استقامتي.

وأجابها جيم:

- حسنًا، ما رأيكِ في أن نعيش معًا دائمًا، هل ستكونين مستقيمة حينها؟

- لا، لا أستطيع أن أوافق على هذا.. لا أستطيع أن أفعل ذلك.

وكان قد عرض عليها مرات من قبل أن تعيش معه، ولكنها كانت ترفض رجاءه دائمًا.. ومع هذا عاد يقول لها:

- بل الأفضل أن تقيمي معي، سوف أستأجر لكِ غرفة مفروشة في حي هالليواي، وهناك يمكننا أن نعيش كما لو كنا متزوجين.

- وماذا عن عملك؟

- سألتحق بعمل آخر قريب من عش سعادتنا، إنني أصبحت شديد الضيق بكل ما يجري حولنا.

- وأنا أيضًا أصبحت كذلك، ولكنني لا أستطيع أن أترك أمي.

- يمكنها أن تأتي معنا أيضًا.

- لا، هذا غير ممكن، ما دمت غير متزوجة منك، إن أمي لا تقبل هذا الوضع، وأنا لا أريد أن تعرف حقيقة أمري معك.

- حسنًا، سوف أتزوجكِ.. عليَّ اللعنة إذا لم أفعل.. فأنا أشتاق إلى الزواج منكِ بكل ذرة من كياني.

- مستحيل!، كيف يمكن هذا وأنت متزوج بالفعل؟

- هذا لا يهم، إنني أستطيع أن أرغم زوجتي على الافتراق الجسدي ثم أسترضيها ببعض راتبي الأسبوعي، وسوف توقع على ورقة تخلي لنا الجو، عندئذ يمكننا الحصول على انفصال، لقد فعل أحد زملائي في المصنع مثل هذا، وكان هذا صوابًا.

فهزت ليزا رأسها وقالت:

- هذا غير ممكن، أنت لا تستطيع أن تفعل هذا، إنك إذا فعلت هذا فسوف يقبض عليك وتُقدم للمحاكمة بتهمة تعدد الزوجات وتقضي اثني عشر شهرًا محبوسًا.

- ليكن ما يكون يا ليزا، فأنا لا أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا، حسنًا، لم يعد هناك شك أن امرأتي أصبحت تعرف كل شيء عنا الآن، وهي تفعل كل ما يجعلني أرى أنها تعرف.

- هل حدثتك في هذا؟

- حسنًا، لم تقل هذا بالضبط، ولكنها تتصرف معي تصرف الزوجة التي تعرف كل شيء عن خيانة زوجها لها، إنها مقطبة الوجه دائمًا، لا توجه من الحديث لي إلا السباب والشتائم، وقد كان بإمكاني أن أضربها ضربًا مبرحًا، ولكني لا أريد، إنها على العموم قد جعلت حياتي جحيمًا لا يُطاق، وأنا لن أستطيع أن أتحمل أكثر.

- هذه نتيجة طبيعية لما أقدمنا عليه معًا. لا يمكنك أن تلومها.

- وما الذي يرغمنا على احتمال هذه الحياة البائسة؟ لو أنكِ تحبينني حقًّا يا ليزا ما رفضتِ الحياة معي.

فالتفتت إليه ليزا ولفت ذراعيها حول عنقه وقالت:

- أنت تعرف يا جيم أنني أحبك بكل جوارحي أيها الديك العجوز!.. إنني لا أحب في العالم كله أحدًا كما أحبك، ولكنني لا أستطيع أن أهجر أمي.

- لماذا لا تهجرينها؟ إنها أم قاسية لا تهتم بكِ وتستعبد عاطفتكِ نحوها لتأخذ معظم راتبكِ لتسكر به.

- نعم هذا صحيح، أعترف بأنها ليست الأم المثالية، ولكنها أمي على كل حال وأنا لا أحب أن أتركها وحدها، ولاسيما أنها أصبحت كبيرة السن، وهي لا تستطيع أن تقوم بالكثير لأنها مريضة بالروماتيزم، بالإضافة إلى..، لا تنس يا عزيزي جيم أن الأمر لا يتعلق بأمي فقط، فهناك أولادك أيضًا.. وأنت لا تستطيع أن تتركهم.

ففكر جيم للحظة ثم قال:

- إنكِ على حق في هذه المسألة يا ليزا.. فأنا لا أستطيع الحياة من دون أولادي.. فإذا استطعت أن أصحبهم معي، فاللعنة عليَّ إذا لم أشعر بالسعادة.

فابتسمت ليزا في أسى وقالت:

- أرأيت يا جيم أن الظروف المحيطة بنا لا تسمح لنا بتحقيق أمنياتنا؟

فأخذها ووضعها على ركبتيه، وراح يضمها بشوق، ويقبلها بحرارة قبلات طويلة.

فقالت مرة أخرى:

- حسنًا، عليك أن تثق في الحظ، ربما يحدث شيء ما قريبًا وتستقيم لنا الأمور وننعم بالسعادة في النهاية. عندما نحصل على أربع كرات من الصوف ببنس واحد!

وفى منتصف الليل، افترقا عند جسر وستمنستر، ومضى كل منهما في طريق مختلف عبر الطرق الكئيبة، المبتلة والمهجورة حتى وصلا شارع فيرستريت. وكان الشارع بالنسبة لليزا قد طرأ عليه أشد التغيير عما كان عليه منذ ثلاثة أشهر، فلم يعد يظهر فيه ذلك المحب المهذب توم، وإن ليزا لتذكر أنها التقت به ذات يوم بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من «عيد الضفاف» وكان يمشي وحيدًا على رصيف الشارع العام. وفجأة خطر ببالها أنها لم تره

منذ فترة طويلة، ولكن كانت سعادتها بالحب الذي ملأ قلبها، جعلتها لا تكاد ترى أحدًا أو تفكر في أحد غير جيم، وإنها لتذكر كيف مرت أمامه، وكيف كانت دهشتها بالغة حينما تجاهلها ولم يحاول التحدث إليها، وظنت ببعض الاستغراب أنه لم يرها، ولكنها شعرت بأنه يتبعها بنظراته بعد أن تجاوزته، ولما التفتت إليه فجأة، أطرق في ارتباك وحاول أن يمضي في طريقه وكأنه لم يرها وقد توهجت وجنتاه بحمرة الخجل.

وقالت ليزا:

- لماذا لا تريد أن تتحدث إليَّ يا توم؟

فازدادت حمرة وجهه وتمتم قائلًا:

- لم أعرف أنكِ كنتِ تسيرين هنا.

فقالت له:

- بل رأيتني، لا تُنكر، ماذا حدث؟

فقال مضطربًا:

- لا شيء كما أعرف.

- هل ترى أني أسأت إليك يا توم؟

فأجاب بصوت يمتلئ بالحزن والبؤس:

- لا يا ليزا. إنك لم تسيئي لي.

فعادت تسأله:

- إذَنْ لماذا لا تحاول أن تراني؟

- لأني أعتقد أنكِ لا تريدين أن تريني.

- قرني!، أنت تعرف يا توم أنني أحبك كما أحب الجميع.

فتضرج وجهه بالحمرة وتمتم:

- أنتِ تحبين الكثير من الناس يا ليزا.

فهتفت ليزا في استنكار وقد توهجت وجنتاها هي أيضًا:

- ماذا تقصد؟

كانت خائفة أن يكون قد عرف الآن، وكانت تريد بشدة أن تخفي كل شيء عنه هو بالتحديد.

وأجاب بقوله:

- لا شيء.

- لا أحد يتكلم بعبارات لا معنى لها إلا إذا كان أحمق وساذجًا.

فنظر إليها في عتاب، ثم قال وهو ينصرف عنها فجأة:

- أنتِ على حق يا ليزا، أنا أحمق وساذج! إلى اللقاء.

فى البداية راحت توهم نفسها بأنه لا يعرف الحقيقة عن غرامها بجيم، ولكنها، مع مرور الأيام، لم تعد تهتم بالأمر، فقد كانت توحي إلى نفسها بأنه ليس لأحد أن يتدخل في شؤونها الخاصة، وأنه لن يهمها شيء في الحياة، ما دامت تحب جيم وجيم يحبها.

ولكنها كانت تشعر بالغضب من توم؛ لأنه أصبح يشك في أمرها على أساس الشائعات وكلام الذين رأوها مع جيم مرة في الحديقة، وعلى شاطئ التايمز مرة أخرى، وقد اعتبرت أنه لا يجب أن يشجبها من أجل ذلك، ولهذا السبب قاطعته تمامًا، فكانت إذا رأته أشاحت بوجهها وتجاهلته، وعاملها هو بالمثل فصار يتجنبها، ولا يحاول التحدث إليها، وإذا رآها في الطريق، نظر أمامه كأنه لم يرها، ولكنها كانت تلاحظ تضرج وجهه في كل مرة، ويُخيّل إليها أنها ترى في عينيه أبلغ أمارات الشقاء.

وبعد مضي عدة أسابيع، وقد بدأت تشعر بالوحدة أكثر فأكثر في الشارع، فندمت على خصامها مع توم، وأخذت تذرف القليل من الدموع كلما تذكرت أنها فقدت وفاءه وإخلاصه وطهارة حبه، وتمنت لو استطاعت الاحتفاظ –على الأقل– بصداقته مرة أخرى.

فلو أنه بدأ بالخطوة الأولى للمصالحة، لتقدمت إليه خطوات مرحبة، ولكن كبرياءها كانت تمنعها دائمًا من اتخاذ الخطوة الأولى نحو استرجاع صداقته، والتماس صفحه وغفرانه، وحتى إذا حاولت فهل تراه يقبل أن يصفح عنها ويغفر لها؟

وكانت أيضًا قد فقدت صداقة سالي، ذلك أن هاري بعد الزواج، منعها من الاستمرار في العمل بالمصنع، ولم يقبل أن يعتمد في نفقاته المنزلية على راتب زوجته، وقد قال لحماته في هذا الأمر:

- إن مكان الزوجة هو البيت، فإذا عجز زوجها عن توفير أسباب الحياة الزوجية لها، فالأفضل أن تكسب رزقها وتعيش عزباء.

ووافقت حماته قائلة:

- نعم، وأكثر من هذا، فإن المفروض أن تصبح الزوجة أمًّا لعدد من الأطفال، فكيف توفق بين عملها خارج البيت وبين عنايتها بهم والقيام على خدمة الزوج؟ ليس هناك من يعرف أعباء الحياة الزوجية ومتاعبها ومتاعب الأطفال مثلي؛ فقد كنت أمًّا لاثني عشر طفلًا، بالإضافة إلى اثنين اختارهم الرب.

وكانت ليزا تشعر بالغيرة من سعادة سالي، فقد كانت العروس لا تكفّ عن الغناء والضحك والمرح، كانت السعادة تطغي عليها، وقد قالت ليزا يومًا بعد بضعة أسابيع من الزواج:

- إنني سعيدة للغاية يا ليزا، فأنتِ لا تتصورين مدى ما يتمتع به هاري من طيبة وحسن خلق، إنه يحبني إلى درجة القداسة، وإني لسعيدة حقًّا، ومهما يكن رأي الناس، فإني لا أرى في الحياة أمتع من الزواج، ولا سيما إذا كان الزوج له أخلاق هاري. إنه لا يتفوه بكلمة خارجة، وأمي تتناول معنا الوجبات الثلاث كل يوم، وعلى العموم فأنا سعيدة يا ليزا ولا أكاد أعرف من فرط السعادة هل أنا واقفة على قدميّ أم على رأسي.

ولكن واحسرتاه! هذه السعادة لم تستمر طويلًا، ذلك أن سالي لم تكن مفعمة القلب بالبهجة عندما التقت بليزا في المرة التالية، ولاحظت ليزا ذات يوم أنها كانت تبكي فقالت لها:

- ماذا بكِ يا سالي؟ هل كنتِ تبكين؟

فتضرج وجه سالي خجلًا:

- أنا؟ أوه.. إنني أعاني من وجع الأسنان، ويبدو أنني حمقاء فاترة النفس؛ إذ أبكي من وجع بسيط كهذا.

ولم تقتنع ليزا بهذا العذر، ولكنها أبت أن تزيد من إحراج صديقتها، وأخيرًا عرفت كل الحقيقة ذات يوم، وكان مساء يوم السبت، الوقت الذي تتباكى فيه نساء فيرستريت، فقد ذهبت ليزا لزيارة صديقتها سالي لبضع دقائق قبل أن تذهب إلى موعدها اليومي مع جيم عند جسر وستمنستر، وكانت سالي تقيم مع هاري في إحدى غرف الطابق العلوي بالبيت، فلما بلغت ليزا هذا الطابق، نادت سالي بالجملة المعتادة:

- هو! هو!.. سالي!

ولكن باب غرفة سالي ظل مغلقًا برغم تسلل شعاع من الضوء من فرجة الباب، وعندما اقتربت ليزا منه، تسمرت في مكانها حين سمعت نشيج البكاء، فوقفت برهة تنصت ثم نقرت على الباب برفق، وبعد حركات مضطربة في الداخل سمعت صوتًا يقول:

- مَن هناك؟

فقالت ليزا وهي تدفع الباب لتدخل:

- أنا فقط.

وما كادت تتقدم بضع خطوات حتى رأت سالي تحاول أن تمسح الدموع عن عينيها في سرعة واضطراب، وأخفت منديلها، وكانت أمها جالسة بجانبها تواسيها وتهدئ من روعها. وقالت ليزا:

- ماذا بكِ يا سالي؟

فأجابت وهي تحاول أن تكتم بكاءها:

- لا شيء.

ثم أدارت وجهها حتى لا ترى ليزا الدموع في عينيها، ولكن دموعها ظلت تسيل برغمها، فسارعت تخرج منديلها، ثم انهارت فجأة فأخفت وجهها بالمنديل وانفجرت في بكاء يحطم القلب.

ونظرت ليزا إلى الأم بعينين متسائلتين، فقالت السيدة بصوت غاضب وهي تهز رأسها:

- أوه، إنه هذا الرجل مرة أخرى.

فقالت ليزا في دهشة:

- ليس هاري على كل حال؟

- إذا لم يكن هاري، فمن يكون؟ الوغد السكير!

سألت ليزا مرة أخرى:

- ماذا حدث؟

- إنه يضربها.. هذا الوغد، إنه لا يخجل من نفسه.

قالت ليزا:

- لم أكن أعرف أن هاري من هذا النوع؟

فقالت الأم بغضب:

- كيف لا تعرفين، وسكان الشارع جميعًا يعرفون أن هذا اللعين هاري لا يكف عن ضرب ابنتي بمناسبة وبلا مناسبة.

عندئذ قالت سالي وهي تبكي:

- إن هاري لا يضربني يا أمي إلا عندما يُسرف قليلًا في شرب الخمر ويفقد وعيه، فإذا عاد إلى حالته الطبيعية أصبح طيب القلب ومحبًّا مخلصًا.

- يُسرف قليلًا في شرب الخمر! مهما يكن الأمر فلن أتركه يفلت من لساني هذه المرة، هذا الوغد.. لقد صبرت طويلًا على معاملته لكِ، ومن يدري، فربما يتعود على هذه الحال ويصبح مدمنًا سكيرًا لا يفيق.. هكذا الأزواج كلهم، يكون الواحد منهم طيب القلب أحيانًا وهو في حالته الطبيعية، أما إذا شرب وسكر فإنه يتحول إلى وحش كاسر، نعم.. لقد كان لى زوج عاش معي خمسة وعشرين عامًا، وأنا أعرف هذه الأمور عن تجربة وخبرة عملية.

فقالت سالي ودموعها مازالت تنهمر:

- لكني أنا المخطئة هذه المرة يا أمي، كان يجب ألا أتأخر في العودة إلى البيت.

كلَّا لم يكن هذا خطأكِ. انظري يا عزيزتي ليزا، فقط لمجرد أن ذهبت - سالي لزيارة جارتنا مسز ماكلويد في البيت المجاور، ولما عادت متأخرة نصف ساعة بعد عودته من المصنع، قام إليها هذا الذي يُسمِّي نفسه رجلًا، وأخذ يضربها ويضربني معها أنا مسز كوبر.

وتضرج وجه الأم من فرط الانفعال والسخط، ثم أردفت قائلة:

- نعم، لقد ضربني أيضًا، لأني حاولت أن أنقذ ابنتي من قبضته، فهل كان يليق أن أقف لأشاهده وهو ينهال على ابنتي بالضرب؟ هل يُعقل هذا؟ حسنًا، لقد تحول إليَّ، ولكمني بعنف هنا.. انظري!

ثم شمرت كميها وكشفت عن ذراعيها حيث بدت فيهما كدمتان زرقاوان، وواصلت كلامها فقالت:

- لقد أدمى ذراعيّ كما ترين، وكنت أظن في بداية الأمر أنه أصابني بكسر فيه، ولولا أنني انحرفت قليلًا برأسي لهوت الضربة عليه وقتلتني!.. وقد قلت له: إذا حاولت أن تلمسني مرة أخرى، فسوف أذهب إلى مركز البوليس. وعندئذ شعر بالخوف وتركني ألهبه بلساني إذ قلت له: هل تُسمِّي نفسك رجلًا وأنت لا تصلح كناسًا في الطريق؟ ولكن الوغد اللعين أجاب قائلًا بلسانه السليط: اغربي عنها أيتها المرأة العجوز القذرة! فأنتِ السبب في كل خلاف يحدث بيني وبين سالي.. ولن أذكر لكِ يا ليزا كل ما قاله لي هذا الوغد، ولكني قلت له: إنني أتمنى لو أن زواجه بابنتي لم يتم، ولو كنت أعرف أن أخلاقه فاسدة لما رضيت به زوجًا لابنتي بأي ثمن.

فقالت ليزا:

- حسنًا، لم يكن أحد يتوقع أن يكون هاري بهذا الشكل.

وقالت سالي:

- لقد كان في أول الأمر مثاليًّا.

وعادت الأم تقول:

- نعم، إنهم جميعًا هكذا في أول الزواج، ثم ينقلب حالهم بعد بضعة أشهر، من كان يظن أن يتحول هاري المحب الوديع إلى وحش آدمي قبل أن ينتهي

الشهر الثالث من الزواج، وقبل أن يخرج ابنه البكر إلى الحياة؟ أعتقد أنها فضيحة.

ومكثت ليزا فترة أخرى حاولت خلالها أن تواسي سالي التي ظلت تدَّعي أنها هي المخطئة في حق هاري، وأخيرًا تبادلت معها التحية وتمنت لصديقتها حظًّا أفضل، ثم انصرفت في طريقها للقاء جيم.

وعندما وصلت إلى مكان اللقاء، لم تجده، فوقفت للحظات في انتظاره، وأخيرًا رأته قادمًا نحوها من حانة قريبة، فأسرعت إليه وهي تقول:

- طاب مساؤك يا جيم.

فأجابها بخشونة وهو مقطب الوجه:

- أخيرًا وصلتِ؟

سألت ليزا:

- ماذا في الأمر يا جيم؟

وذعرت ليزا من لهجته، إذ لم يسبق لها أن سمعته يتحدث إليها بهذه اللهجة الجافة القاسية، وعاد يقول:

- هل يليق أن تتركيني أنتظركِ طوال الليل؟

ولاحظت ليزا أنه أسرف في شرب الخمر، فقالت له في تواضع:

- إنني آسفة يا جيم، لقد تأخرت عنك لأني ذهبت لزيارة سالي، وهناك وجدتها تبكي لأن زوجها ضربها، فبقيت معها لفترة لأواسيها وأخفف عنها.

- هل ضربها زوجها؟ حسنًا فعل! إن المرأة لا تخاف الرجل وتحبه إذا لم يضربها، وكم من امرأة أخرى تستحق الضرب.. مثلكِ!

وعندما لم تجب ليزا، نظر إليها برهة، ثم قال فجأة:

- تعالي واشربي معي قدحًا من البيرة.

فقالت له:

- لا، أنا لست ظمآنة، لا أريد أن أشرب.

فقال بغضب:

- قلت لكِ تعالي.

- لا يا جيم.. يكفي ما شربت أنت.

- ما لكِ أنتِ وما شربت أنا؟ إذا كنتِ لا تريدين الشراب فسوف أذهب وأشرب أنا.

فأمسكت بذراعه وهتفت برجاء:

- لا يا جيم، لا تفعل.

فقال وهو يتقدم إلى الحانة:

- نعم، سوف أفعل، اتركيني وشأني. ألا تستطيعين أن تتركيني.

وحاول أن يخلص ذراعه من يديها بخشونة، ولكنها تشبثت به، فدفعها بعيدًا عنه، ولكن يده أصابت وجهها فهتفت باكية:

- أوه.. لقد آلمتني.

عندئذ أفاق من تأثير الخمر، فقال لها:

- ليزا.. معذرة.

وعندما لم ترد طوقها بذراعيه وأردف قائلًا:

- هل آلمتك جدًّا يا ليزا؟ قولي لا.. إنني شديد الأسف.. أرجو أن تسامحيني يا ليزا.

فابتسمت ليزا بخجل وقالت:

- حسنًا أيها الحبيب العجوز، إن الضربة لم تؤلمني.. وإنما آلمتني لهجة حديثك معي.

فاسترد كبرياءه وقال بهدوء:

- لم أكن أقصد أن أضربكِ. في الحقيقة إن حالتي الليلة سيئة، فقد حدثت مشادة عنيفة بيني وبين المرأة الليلة، فلما أسرعت للقائكِ هنا، لم أجدكِ، وطال انتظاري، وازدادت حالتي سوءًا، فدخلت هذه الحانة وشربت كأسين من البيرة أو ثلاثة أو أربعة.. أو لا أدري كم.

- لا بأس أيها الحبيب العجوز. إني أستطيع أن أحتمل أكثر من هذا ما دمت تبادلني الحب.

فقبلها وسارا معًا متصالحين.

ولكن هذه المشادة البسيطة كان لها أسوأ الأثر في اليوم التالى، فقد استيقظت ليزا في اليوم التالى فإذا هي تلاحظ كدمة موجعة تحت عينها اليسرى، وبالنظر إلى المرآة رأت أنها دائرة سوداء وزرقاء وخضراء، اغتسلت ولكنها ظلت باقية، بل خُيِّل إليها أن الماء زادها وضوحًا، وخالجها شعور بالخوف من رؤية الناس لها، ولذلك لزمت الغرفة طوال اليوم.

ولكن الكدمة ازدادت سوادًا في صباح اليوم التالي، فحاولت أن تخفيها بقبعتها وهي في الطريق وكانت مطرقة الرأس إلى المصنع، وقد تمكنت من تجنب ملاحظة الناس لها، ولكن الحظ تخلى عنها وهي في طريق العودة إلى البيت، فرأتها أولًا بعض الفتيات ذات النظرات الحادة وقالت إحداهن:

- ماذا أصاب عينكِ يا ليزا؟

فتصنعت ليزا الدهشة ورفعت يدها إلى عينها وكأنها تجهل أي شيء وقالت:

- أنا؟ لا شيء.

وكان هناك اثنان أو ثلاثة شبان واقفين قريبًا، وسمعوا الفتاة فنظروا إلى ليزا، قال أحدهم:

- كيف لا تعرفين يا ليزا أن في وجهكِ كدمة سوداء؟

- أنا؟ أنا عندي عين سوداء؟

- نعم، إنكاركِ لا يُفيد، كيف حدث لكِ هذا؟

قالت ليزا:

- لا أعرف، بل لم أكن أعرف أن في وجهي أي كدمة.

فصاح شاب آخر:

- اللعنة على كل كذاب! هل يمكن أن يصاب إنسان بكدمة في وجهه دون أن يعرف؟

- حسنًا، تذكرت، لقد وقعت أمس على دولاب الملابس وأصيب وجهي، ولكني لم أكن أعرف أن الإصابة تركت أثرها في وجهي.

- آه، نعم، هل تريدين أن نصدق هذا؟

وغمز أحد الشبان بعينه وقال لزميله:

- يبدو أن صاحبنا لا يتورع عن استعمال قبضته حتى مع حبيبة القلب، أليس كذلك يا تيد؟

وشعرت ليزا أنها تزداد احمرارًا حتى أخمص قدميها، وسألت:

- من تقصد؟

- لا تهتمي، لا أحد أنتِ تعرفيه!

وفى تلك اللحظة مرت زوجة جيم ورمقتها بتجهم، وتمنت ليزا لو أنها كانت بعيدة عنها بمئات الأميال، ولما تضاعف تضرج وجهها قالت إحدى الفتيات ساخرة:

- ما سبب احمرار وجهكِ هكذا يا ليزا؟

وأخذت نظرات الجميع تنتقل بين ليزا ومسز بلاكستون، ثم هتف أحدهم:

- يا ليوم الأحد الرائع، إن المعركة الحاسمة آتية بلا شك!

وانفجر الجميع بالضحك، وشعرت ليزا بغصة في حلقها، وبالدموع تتجمع في عينيها، وبالكلمات تتوقف على لسانها، فاستدارت ومضت نحو البيت، بينما هتافات الشبان الساخرين تلاحقها حتى دخلت بيتها.

* * *

الفصل الحادى عشر

بعد عدة أيام، وقفت ليزا وسالي تتحدثان، ولم تكن هذه أسعد حالًا منها في لقائهما السابق. وكانت تقول في حزن:

- لقد ظهر لى أن هاري ليس كما كنت أظن، ولا أجد بأسًا في الاعتراف بهذه الحقيقة، ولكني لا أعفي نفسي من الخطأ، فأنا أيضًا لي عيوبي التي لم يكن يعرفها قبل الزواج، ومهما يكن الأمر، فإني أرجو أن يستقيم حاله عندما أضع مولودنا الأول.

فقالت لها ليزا التي رأت الكثير من حيوات الكثير من المتزوجين:

- تحلي بالصبر يا صديقتي، إن هاري ليس أسوأ خُلقًا من غيره، وسوف تتعودين هذا الحال مع مرور الزمن، ولست أول زوجة تُصدم آمالها في حقيقة أخلاق زوجها.

وبعد برهة من الحديث، استأذنت سالي في الانصراف لكي تعد الشاى لزوجها، ثم قالت فجأة:

- ليزا، أرجو أن تكوني على حذر.

فتساءلت ليزا في دهشة:

- أحذر من أي شيء؟

- أنتِ تعرفين ما أقصد.

- عليَّ اللعنة لو كنت أعرف.

- إن مسز بلاكستون تترصد لكِ.

فهتفت ليزا في خوف:

- مسز بلاكستون؟

- نعم يا ليزا، لقد سمعناها تقول إنها ستضربكِ ضربًا مبرحًا إذا وقعتِ بين يديها، كوني على حذر يا صديقتي.

وأخذت تتمتم:

- تضربني أنا؟

أشاحت سالي بوجهها حتى لا ترى اضطراب صديقتها، ثم عادت تقول:

- إنها تقول أن ترصدها لكِ بسبب.. علاقتكِ بزوجها جيم.

ولم تقل ليزا شيئًا، فكررت سالي تحيتها وانصرفت.

وشعرت ليزا برجفة باردة تسري في كيانها، فقد تذكرت كيف رأت –أكثر من مرة– أمارات الغضب والتجهم على وجه مسز بلاكستون، ولذلك كانت تتجنبها بقدر المستطاع، ولكنها لم تكن تعرف أن المرأة تنوي أن تفعل بها أي شيء، وامتلأ قلبها بالخوف، وتصبب العرق البارد على وجهها، وأدركت أنها لو وقعت بين يدي مسز بلاكستون فإنها ستكون بلا أمل، فهي كانت صغيرة للغاية وضعيفة، بينما الأخرى كانت قوية و ذات عضلات مفتولة.

وسألت نفسها عما ستفعل لو أنها أمسكت بها.

وعندما التقت بجيم في المساء، أخبرته بما سمعته وأرادت أن تجعل منها نكتة:

- أقول لك يا جيم، إن زوجتك قالت إنها تنوي أن تقتلني ضربًا إذا أمسكت بي.

- زوجتي؟ من قال لكِ هذا؟

- لقد قالت هذا لكل سكان الشارع.

فاستشاط جيم غضبًا وصاح قائلًا:

- يا للجحيم! لو أنها جرؤت أن تلمس شعرة في رأسكِ فسوف أضربها ضربًا لم تنل مثله من قبل، نعم.. أقسم لكِ أني سأفعل.. ليتها تلمس شعرة من رأسكِ لكي أطفئ غليلي بضربها ضربًا مبرحًا، لقد ضاق صدري بما ألقاه منها في هذه الأيام.

وكان يهز قبضته ولكن كانت ليزا جبانة.

فقد أخذت تفكر ليلًا ونهارًا في تهديد غريمتها، فاذا جرؤت على الخروج كانت خائفة من أن تقابلها، فكانت تتلفت حولها بعصبية في كل خطوة، وكلما رأت من بعيد امرأة تشبه مسز بلاكستون، لاذت بالهرب إلى أي بيت أو منعطف، كانت تحلم بها أيضًا في المساء، وأصبحت ترى في منامها كأن

امرأة ضخمة، قوية، الوجه الثقيل العابس، وشعرها البني المزين الغريب، تجثم على أنفاسها، فتستيقظ مروعة صائحة في فزع لتجد نفسها غارقة في عرقها.

كانت ظهيرة يوم السبت التالى من أيام نوفمبر المكفهرة الباردة، فالسماء ملبدة بهذه الغيوم التي تثير في النفس الضيق والانقباض، والشوارع مبللة بماء المطر، وكانت ليزا راجعة من المصنع إلى البيت في حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، فلما بلغت شارع فيرستريت، بدأت تسرع الخطو نحو البيت، وفجأة لمحت مسز بلاكستون مقبلة نحوها، فخفق قلبها بعنف، وسرعان ما استدارت وسارت تحث الخطى عائدة من حيث أتت، وأخذت تلتفت لتختلس النظر إلى مسز بلاكستون، وكلما رأتها تتبعها، اشتد فزعها وقلقها إلى أن بلغت مدخل شارع فيرستريت، فانحرفت إلى اليمين آملة أن تدور وتدخل الشارع من ناحيته الأخرى، ومن هناك تصل–دون أن تُلاحظ- إلى بيتها الذي كان قريبًا إلى حد ما، ولكنها خافت أن تتربص بها مسز بلاكستون قبل أن تصل إلى البيت، فقررت أن تنتظر نصف ساعة قبل أن تقوم بهذه المناورة.

وأخيرًا مرت الدقائق بطيئة كأنها سنوات! فاستجمعت ليزا شجاعتها بين يديها، وانحرفت إلى شارع فيرستريت من طرفه الآخر، ولكنها ما كادت تفعل حتى وجدت نفسها وجهًا لوجه أمام غريمتها مسز بلاكستون، وكانت هذه مترصدة لها بالقرب من مدخل الحانة.

وصدرت عن ليزا صيحة فزع، بينما قالت المرأة وهي تكشر عن أسنانها:

- لم تتوقعي أن تريني في انتظاركِ هنا؟ أليس كذلك؟

ولم تجب ليزا بشيء وإنما حاولت أن تمضي في طريقها، ولكن المرأة اعترضت طريقها قائلة:

- يبدو أنكِ متعجلة؟

فقالت ليزا وهي تلتمس منفذًا للمرور:

- نعم، أريد أن أعود إلى البيت بسرعة.

فاعترضت المرأة طريقها مرة أخرى وهي تقول:

- لكن افترضي أني منعتك من الذهاب، ماذا ستفعلين؟

قالت ليزا:

- لماذا لا تتركيني وشأني؟ ما دمت لا أتدخل في شؤونك؟

- لا تتدخلين في شؤوني؟ أليس كذلك؟ أعجبني هذا.

فقالت لها ليزا:

- اتركيني أذهب! لست أريد أن أتكلم معكِ.

فقالت المرأة:

- أعرف أنكِ لا تريدين أن تتكلمي معي، ولكني أريد أن أتحدث معكِ، ولن أتركك تذهبين حتى أقول لكِ كل ما أريد أن أقوله.

وتلفتت ليزا حولها تلتمس المساعدة، فرأت بضعة رجال متسكعين حول مدخل الحانة ينظرون إليهما في اهتمام قبل أن يتجمعوا –تدريجيًّا– حولهما في دائرة صغيرة، ثم انضم إلى هؤلاء بعض المارة، ولما رأى بعض سكان الشارع الزحام، أسرعوا في الانضمام إلى المتحلقين ليروا ماذا يحدث.

رأت ليزا أن كل الأعين كانت مسلطة عليها، الرجال ينظرون إليها في شيء من الاهتمام والانفعال، والنساء يحدقن فيها بلا تعاطف، وحاولت ليزا أن تطلب المساعدة، ولكنها لم تجد في ملامح وجوه المجتمعين حولها إلا أنهم ضدها، ولذلك لم تجد الشجاعة لتفعل. ولهذا وبعد أن تفحصت الحشد، تحولت بنظراتها إلى مسز بلاكستون، ثم وقفت أمامها ترتجف شاحبة الوجه.

وقالت مسز بلاكستون بلهجة حادة ساخرة:

- هل كنتِ تبحثين عنه؟ إنه ليس بينهم.. استريحي.

فأجابت ليزا:

- إنني لا أفهم ماذا تعنين.. دعيني وشأني، أنا لم أسئ إليكِ.

فرددت المرأة بشراسة:

- أنتِ لم تسيئي إليَّ؟ أتتجاهلين مدى إساءتك لي؟ ألا تعرفين أنك سرقتِ زوجي مني؟ ألا تعرفين أني لم أتبادل معه كلمة طيبة منذ اقترافكِ تلك

السرقة المنكرة؟ لقد كنت أنا وهو على أتم وفاق قبل ذلك، أما الآن فهو لا يجد وقتًا لزوجته وأولاده، إن كل وقته مخصص لكِ، وكذلك نقوده.. لم نأخذ منه بنسًا منذ سرقته منا، ولولا المبلغ البسيط الذي كنت أدخره في البنك لمُتّ أنا وأولادي جوعًا.

ولوحت المرأة بقبضتها في وجه ليزا وهي تردف قائلة:

- وكل هذا بسببك أنتِ.

فقالت ليزا:

- أقسم أنني ما أخذت مالًا من أي أحد.

- لا تتكلمي معي، أنا أعرف أنكِ أخذتِ أيها العاهرة القذرة، ألا تخجلين من نفسكِ وأنتِ تسرقين رجلًا من زوجته وأولاده؟ رجلًا كبيرًا يكاد يكون في سن أبيك.

وهنا تدخلت واحدة أو اثنتان من النسوة الواقفات حولهما، وقالت إحداهن:

- إن مسز بلاكستون على حق، ليس هناك ما هو أسوأ من الفتاة التي تسرق زوج امرأة أخرى.

وجمعت مسز بلاكستون قبضتيها، وأصبحت أكثر إثارة وغضبًا، وقالت بصوت أجش وهي تقترب من ليزا متحفزة:

- لا بد أن أهذبكِ وأسحق عظامكِ أيتها الفاجرة.. لقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ أسابيع. لماذا، لأنكِ فاجرة، هذا هو ما أنتِ عليه.

فقالت ليزا في استنكار:

- أنا لست فاجرة!

فصاحت مسز بلاكستون في غضب مروع وهي تقترب منها بينما تتراجع ليزا:

- بل أنتِ أكثر من فاجرة، وسوف أعاملكِ على هذا الأساس، إنني أعرف من الذي سبب لك هذه الكدمة في عينكِ.. إنه هو.. لا شك أنه يعاملك المعاملة التي تستحقينها.. وليته ضربك على عينيك الاثنتين.

ووقفت مسز بلاكستون أمام ليزا مباشرة، وأخذت تحدق فيها بعينيها الضيقتين في صمت رهيب، وقد برز فكها الثقيل، وازداد عبوس وجهها اسودادًا وغليانًا، بينما وقف الجميع حولهما يراقبون ما يجري بأنفاس مكتومة.

وقالت المرأة أخيرًا:

- أيتها العاهرة الصغيرة! هذا جزاؤكِ!

ثم هوت بكفها المفتوحة على وجه ليزا في صفعة مدوية جعلت الفتاة ترسل صيحة ألم خافتة، ثم تتراجع خطوة وهي تضع يدها على وجهها، بينما راحت مسز بلاكستون تكيل لها الصفعات وهي تقول قبل كل صفعة:

- خذي هذه أيضًا.

وأخيرًا جمعت لعابها في فمها وبصقته على وجه ليزا.

هجمت ليزا على المرأة، وأنشبت أظافرها كالمخالب في وجهها، فأحدثت بخديها عددًا كبيرًا من الجروح والخدوش، وأمسكت مسز بلاكستون بشعر ليزا وراحت تشده بأعنف ما تستطيع. ولكنهما انفصلا في الحال.

وأسرع بعض الواقفين قائلين:

- لا.. لا.. ما هكذا تكون المعارك الحامية! يجب أن تتعاركا طبقًا للأصول الرياضية المعترف بها! فلا خمش ولا عض ولا تمزيق للشعر.

فصاحت مسز بلاكستون وهي تشمر عن ساعديها وترسل نظرات من نار إلى غريمتها:

- سوف أقاتلها بأي شكل، لا يهمني.

ووقفت ليزا أمامها مرتجفة الجسم، شاحبة الوجه، تنظر إلى الجروح الطويلة الدامية التي أحدثتها بأظافرها في وجه غريمتها، والدماء تسيل من جرح أو اثنين منهما، ثم تراجعت فجأة في خوف، وقالت بصوت مختنق:

- أنا لا أريد أن أتعارك معكِ.

فهمست الأخرى:

- كلنا نعرف أنكِ لا تريدين ذلك، ولكنني لا أهتم بما تريدين أيتها اللعينة، وعليكِ أن تدخلي معي في معركة.

فصاحت ليزا وهي تنظر إلى من حولها باكية:

- ألا ترون أنها أكبر وأضخم مني؟ أنا لن أحصل على أي فرصة.

فقالت مسز بلاكستون وهي تتقدم إليها:

- كان يجب أن تفكري في هذا من قبل.. هيا!

ثم أتبعت هذا بأن فاجأتها بلكمتين متتابعتين في وجهها، فصرخت ليزا من شدة الألم، ولكنها لم تحاول أن تحمي نفسها، بل قلدت غريمتها في الضرب، وأخذت توجه إلى وجهها اللكمات بكل قوتها.. مرت دقيقة أو دقيقتان وهما مستمرتان في هذا الأمر، كل منهما تمطر الأخرى بوابل من اللكمات، وكأن أذرعهما مراوح طاحونة هوائية، ولكن ليزا لم تستطع أن تصمد طويلًا أمام غريمتها البدينة القوية، فتوقفت عن اللكم، وراحت تتلقى ضربات الأخرى وهي تهوي عليها ثقيلة كالمطارق، فرفعت ذراعيها لتحمي وجهها ورأسها، بينما استمرت المرأة في ضربها بلا رحمة.

وصاح أحد الرجال:

- انتهت الجولة الأولى.. توقفا.

وتوقفت مسز بلاكستون لتسترد أنفاسها، وقال أحد المتفرجين من وسط الزحام:

- إن المعركة غير متكافئة بينهما كما قالت ليزا، فليس أمام الفتاة الصغيرة أي فرصة للانتصار على هذه المرأة الضخمة.

فردت عليه إحدى النساء قائلة:

- حسنًا، لكن ليزا هي المخطئة، فما كان يليق بها أن تعبث مع زوجها.

وقال رجل آخر:

- حسنًا، لقد نالت كفايتها من المهانة والضرب، لقد نالت الكثير.

فردت إحدى النساء بحدة:

- لا، بل يجب أن تنال مزيدًا من الضرب لتكون عبرة لغيرها.

ووافقت امرأة ثالثة على هذا بقولها:

- هذا صحيح تمامًا، ليس من حق أي امرأة أن تسرق زوج أخرى، فإذا هي فعلت، فلا أقل من أن تعاقب بالضرب المبرح حتى لا ترجع لمثلها أبدًا.. وهذا أقل شيء..هذا هو رأيي.

فقالت المرأة الأولى:

- إنه رأيي أيضًا. إنني كذلك. إنني لم أظن يومًا أن تفعل ليزا هذا. كنت أعتقد أنها فتاة مستقيمة طاهرة.

عندئذ قالت امرأة قصيرة قبيحة ملوحة البشرة يهودية الملامح:

- عليها اللعنة.. لو أنها فعلت ذلك مع زوجي لأحرقتها! أقسم على هذا!

وأضافت المرأة الثانية قائلة:

- مَن يدري؟ إنها وقد عبثت مع مستر بلاكستون اليوم، لا بد أن تعبث غدًا مع زوج آخر من أزواجنا، وإني واثقة بأنها ستفعل.

وقالت الثالثة:

- الأفضل لها ألا تقترب من بيتي، فإذا هي اقتربت فسوف أضربها حتى الموت.

وخلال هذه التعليقات كلها، كانت ليزا واقفة في ركن الدائرة ترتعد بعنف، وتبكي بحرقة، وقد تورمت إحدى عينيها، وتشعث شعرها وتهدل على وجهها، وكان هناك شابان واقفان معها كظهيرين لها يخففان عنها ويسديان لها النصائح والإرشادات في أصول الملاكمة وفن الضرب! وكان أحدهما قد تناول طرف مريلتها وراح يهوي به على وجهها، بينما كان الآخر يشرح لها كيف تقف وتضم ذراعيها، وكان يقول لها ناصحًا:

- يجب أن تصمدي أمامها يا ليزا، ليس هناك فائدة من التخاذل.. إن هذا سيعطي لها فرصة الضرب المتواصل، وعلى ذلك يجب أن تقاومي بقدر الإمكان، وأن تردي اللكمة بمثلها أو بأقوى منها إذا استطعت، وأنصحك بأن ترسلي إليها ضربة قوية على أنفها. هكذا..يجب أن تُظهري بعض القسوة، تعرفين!

وحاولت ليزا أن تتوقف عن البكاء، بينما أردف ناصح خبير آخر من الواقفين حولها قائلًا لها:

- نعم.. اضربي بقوة وعنف.. فإذا وجدت أنها أقوى وأسرع منكِ، فاهجمي عليها وأمسكي شعرها واخمشيها بأظافرك.

وقال ثالث مشجعًا:

- لقد تركت أظافركِ علامات مسجلة على وجهها يا ليزا.. اللعنة على قفزتك عليها عندما بصقت في وجهك.. هكذا تكون الجرأة في القتال.

ثم التفت إلى زملائه وأردف قائلًا:

- هل تذكرون يا رفاق معركة أمنا العجوز مسز جريج مع تلك المرأة من الشارع الآخر في العام الماضي؟

فقال أحد الرفاق:

- لا..لا أنا لم أرَ هذه.

- كانت مدهشة! كادت إحداهما أن تخنق الأخرى لولا تدخل رجال البوليس واقتادوهما إلى القسم.

وتمنت ليزا لو تدخل أحد رجال البوليس لإنقاذها ولو بأخذها إلى القسم.. فقد كانت تفضل السجن على الوقوف أمام هذه المرأة، ولكن أمنيتها لم تتحقق، إذ صاح الحكم أخيرًا:

- حان وقت الجولة الثانية.. هيا أطلقوا النار!

وهتف أحد الواقفين:

- احذروا من رجال البوليس.

فرد عليه آخر قائلًا:

- لا عليك منهم. إنهم لا يتدخلون إلا إذا تهدد الموت إحدى المتعاركات.

- أطلقوا النار!

ووثبت مسز بلاكستون بجنون على ليزا، ولكن هذه صمدت لها بشجاعة، وعلى قدر ما استطاعت راحت ترد لكماتها بمثلها مما جعل المتفرجين يهتفون لها في سرور واهتياج قائلين:

- هكذا تكون الملاكمة يا ليزا.. اضربيها بقوة.. نعم.. أرسلي إحدى لكماتك على أنفها.

وهتف أحد الشغوفين بالمراهنات قائلًا:

- أنا أراهن باثنين لواحد ضد المرأة البدينة.

ولكن ليزا لم تجد أي مناصرين.

وصاح آخر:

- أؤكد لكم يا رفاق أنها ستكسب الجولة الثانية.. لقد استثرنا حماستها.

وقال ثالث معلقًا:

- يبدو أنها ليست جبانة ضعيفة كما كنا نظن.

ولكن هذه التعليقات أثارت غضب مسز بلاكستون، وجعلتها تقاتل بمزيد من العنف، ثم استغلت إحدى الفرص وهوت بقبضة يدها على أنف ليزا فأدمته وجعلت الدماء تنبثق منه غزيرة، فتراجعت الفتاة مترنحة برهة.

ولكن ليزا تمالكت نفسها بسرعة وشعرت بالغضب والجنون يسري في كيانها، وبالخوف يختفي، ثم انقضت على غريمتها كالصاعقة، وانهالت باللكمات على أنفها وعينيها وفمها. وفوجئت المرأة بهذا الانقضاض، فتراجعت مذعورة تحاول الاحتماء من هذا الهجوم الرهيب، بينما صاح الرجال هاتفين:

- حسنًا يا ليزا، إنكِ تكادين أن تظفري بالنصر.

ولكن المرأة استطاعت –بسرعة– أن تسترد شجاعتها فصمدت للفتاة، ثم أمسكتها وغرست أظافرها في جسدها، بينما أمسكت ليزا شعر المرأة وأخذت تشده بقوة وعنف، ثم هوت بأسنانها تحاول عضها، وهكذا ظلتا بضع لحظات وهما تتقاتلان على هذا النحو: كل منهما تخمش الأخرى، وتعضها، وتمزق شعرها، بينما قطرات العرق والدماء تسيل من وجهيهما، والنظرات القاتلة تتبادل بينهما، والمتفرجون يصيحون ويهتفون ويصفقون: «هكذا تكون المعارك!».

وفجأة تهامست بعض النساء:

- انظروا هناك، إنه الزوج.

ووقف مستر بلاكستون على أطراف أصابعه خلف حلقة المتفرجين، وراح ينظر إلى سبب هذا الزحام، فلما رأى ما يجري هتف:

- يا إله السماء! هذه ليزا..

وبعد أن شق لنفسه طريقًا بخشونة، مضى إلى الغريمتين وألقى بنفسه بينهما، وفصلهما في قوة وعنف، ثم التفت إلى زوجته، وقال لها في غضب:

- أقسم لأجعلكِ تندمين على هذا.

ثم أخذ ثلاثتهم يتبادلون النظرات للحظات في صمت، وعندئذ شق شاب ممن لفت الزحام أنظارهم، طريقه إليهما وأشار إلى ليزا هاتفًا بها:

- هيا معي يا ليزا.

- توم!

أمسك الفتى ذراعها في رفق، وغادر معها المكان بعد أن أفسح لهما الناس الطريق. كانا يمشيان بضجة في الشارع.

كان الحزن يملأ قلب توم، بينما الدموع تنهمر من عيني ليزا، وأخيرًا قالت له باكية:

- أوه، توم.. سامحني.. إن ما حدث كان أقوى من إرادتي، لقد أحببته على غير إرادتي.. لقد أحببته على غير إرادتي.

ولما وصلا إلى باب مسكنها، أردفت قائلة بصوت كله رجاء:

- تعالَ معي.

فمضى خلفها إلى الغرفة، وهناك تهالكت الفتاة على أحد المقعدين، وانفجرت تبكي في عنف.

وبلل توم طرف المنشفة، وراح يمسح عن وجهها الدماء والدموع، وتركته هي يفعل هذا وهي تتأوه وتتوجع وتقول:

- إنك شاب نبيل يا توم.

فقال لها في إشفاق:

- خففي عن نفسكِ يا ليزا، لقد انتهت المحنة.

وبعد أن هدأت نوبة البكاء، شربت ليزا بعض الماء، ثم أخذت مرآتها الصغيرة المكسورة اليد، ونظرت إلى نفسها قائلة: «يا لمنظري البشع!».

ثم أردفت وهي تسوي شعرها قائلة بصوت متهدج باكٍ:

- لقد كنت دائمًا نعم الصديق يا توم، وقد أنقذتني في اللحظة الأخيرة اليوم.

فجلس بجوارها وأخذت هي يده.

وأجابها:

- إنني لم أفعل إلا ماكان سيفعله أي شخص آخر.

وبعد برهة من الصمت قالت له:

- أنت تعرف يا توم مدى أسفي منذ وجهت إليك عبارات قاسية في لقائنا الأخير في الشارع، إنك لم تحاول أن تتحدث إليَّ بعد ذلك اليوم.

- لقد مضى هذا كله الآن إلى غير رجعة، يا سيدتي العجوز، لا داعي لاستعادة الذكريات المؤلمة.

- ولكني عاملتك بغلظة وقسوة، إنني دائمًا مخطئة، طائشة.

فضغط يدها دون أن يقول شيئًا، فقالت هي بعد فترة أخرى من الصمت:

- توم.. هل.. هل كنت تعرف هذا..قبل.. قبل الآن؟

فتضرج وجهه احمرارًا وقال:

- نعم.

فعادت تقول بصوت حزين بطيء:

- هذا ما كنت أظن، لأني كنت أراك تحاول أن تتجنب رؤيتي دائمًا.. فهل كنت تحبني يا توم برغم كل شيء؟

فأجابها قائلًا:

- لا أعرف يا عزيزتي.

فتنهدت ثم قالت:

- لقد ذهبت الفرصة مع الأسف.

فقال لها:

- هل تعلمين يا ليزا أني كدت أقتل زميلًا لي؛ لأني سمعته يذكر أنكِ عشيقة جيم بلاكستون؟

- وهل كنت تعرف هذا عني يا توم؟

- نعم، ولكني لم أكن أسمح لأحد أن يذكركِ أمامي بالسوء.

- إنهم جميعًا متعصبون ضدي إلا أنت، كان يجب أن أقبل الزواج منك حين عرضته عليَّ.. فلو أني فعلت لما كان هذا هو حالي الآن.

- حسنًا، إني لا أزال أعرض عليكِ الزواج يا ليزا.. فهل تقبلين الآن؟

- أنا؟ بعد كل ما حدث؟

- أوه، لا تهتمي بذلك، هذا الأمر لا يهمني أيضًا إذا كنت ستتزوجين بي، أنا في الواقع لا أستطيع أن أعيش من دونك يا ليزا، فهل تقبلين؟

فتأوهت وقالت:

- لا.. لا أستطيع يا توم.. لم أعد أصلح لك.

- لِمَ لا ؟ إنني غفرت لكِ كل شيء.

فأطرقت وهمست قائلة:

- توم.. إنني.. إنني لم أعد.. كما كنت.

- ماذا تقصدين؟

فازداد صوتها خفوتًا وهي تهمس:

- لقد.. أصبحت.. امرأة.

فصمت للحظات ثم قال مرة أخرى:

- حسنًا، لا يهمني هذا إذا قبلتِ الزواج مني.

فانفجرت باكية وقالت:

- لا.. لا أستطيع يا توم.. إنك إنسان طيب كريم الخلق، وأنا على استعداد لأن أحقق لك أي رغبة أخرى.

ثم لفت ذراعيها حول عنقه،. وجلست على ركبته وأردفت قائلة:

- أنت تعرف يا توم أني لا أستطيع أن أقبل الزواج منك الآن، ولكن إذا رغبت في شيء آخر، فإني على استعداد لتحقيق رغبتك لكي أجعلك سعيدًا.

ولم يفهم ماذا تعني، وإنما قال وهو ينحني عليها ويقبّل جبينها في حزن:

- ما أطيب قلبكِ يا ليزا!

ثم تنهد ونهض فغادر الغرفة تاركًا ليزا وحدها، وظلت هي للحظات صامتة تستعيد في ذاكرتها كل ما حدث في يومها التعيس هذا، وأخيرًا استبد بها الشعور بالوحشة والبؤس، فانفجرت الدموع من عينيها، وألقت بنفسها على السرير وراحت تنشج بالبكاء ودفنت وجهها بين الوسائد.

* * *

وقف جيم بلاكستون ينظر إلى ليزا وهي تغادر مع توم، بينما وقفت زوجته تنظر إليه والغيرة تنهش قلبها، ثم قالت له:

- إنك تفكر فيها بطبيعة الحال، لا شك أنك كنت تتمنى لو أخذتها أنت إلى البيت بدلًا من هذا الشاب. نعم.. تمضي بها إلى بيتها وتتركني ألعق جراحي.

فالتفت جيم إليها وصاح بغضب:

- اخرسي!

فردت عليه بصوت يزداد ارتفاعًا:

- إنني لن أخرس! يا لك من زوج وفيّ، زوج لا مثيل له بين الأزواج! زوج يترك زوجته وأطفاله ليعبث مع فتاة في سن ابنته، أما تخجل يا رجل وأنت في هذه السن؟ إنك تبدو كأنك تعبث مع ابنتك أنت!

فقال وهو يطحن أسنانه من شدة الغضب:

- أقسم لأضربنك حتى أخمد أنفاسكِ إذا لم تبتعدي عني الآن.

فالتفتت إلى المتحلقين حولهما وقالت:

- انظروا كيف يعاملني؟ اسمعوا حديثه لي.. لقد تزوجت منه منذ عشرين عامًا كنت خلالها نعم الزوجة، وقد أنجبت له سبعة أبناء يعيش منهم خمسة، بالإضافة إلى آلام الحمل والوضع.. وهذا هو جزائي منه، وهكذا يرد الجميل.

ثم نظرت إليه في استنكار، وقالت له:

- نعم الزوج المخلص الوفى حقًّا.

وعادت إلى الواقفين حولها، كأنها تطلب رأيهم، وأردفت تقول:

- أليس كذلك؟

وعندئذ راح جيم يشق طريقه بين المتزاحمين قائلًا:

- حسنًا، إنني لن أمكث هنا طوال الليل.. أفسحوا الطريق للمرور.

وكلما حاول أحد أن يعترض على خشونته، أرسل جيم إليه نظرات متحدية غاضبة تجعله يتراجع في خوف التماسًا للسلامة. وقالت زوجته:

- انظروا إليه.. انظروا كيف ينسحب كالكلب المذعور وذيله بين ساقيه! آه.. سأعرف كيف أعذبه!

وسارت خلفه وهي تلوح بذراعيها صائحة:

- أيها الحيوان القذر! ألا تخجل من العبث بفتاة صغيرة.. آه.. لو لم تكن زوجي لما قبلت أن ألمس ثوبك.. إن مجرد النظر إليك يشعرني بالغثيان.

وأخذ المتجمعون يتبعونها على جانبي الطريق، تاركين مسافة متحفظة، وهم ينصتون إلى حديث المرأة، واستدار إليها جيم مرة أو مرتين وصاح بها:

- اخرسي!

ولكنها كانت تزداد غضبًا وتقول له:

- إنني لن أخرس، وإنما سأفضحك على.. فأنت.. إنني شديدة الخجل من أبوتك لأولادي، ألا تعرف أنني كنت أعرف كل شيء عنك وأنت تسهر لياليك في الخارج إلى ما بعد منتصف الليل؟ طبعًا كنت معها.. عناق وقبلات، أنت حقًّا إنسان لطيف، أليس كذلك؟

ولاذ جيم بالصمت، وكان مستمرًّا في المشي، ثم التفت أخيرًا إلى الذين يتبعونهما وصاح بهم قائلًا:

- والآن، ماذا تريدون منَّا؟ إذا لم تتفرقوا فورًا فسأنهال عليكم ضربًا.

ولما كان معظم هؤلاء من النساء والصبيان، فقد تراجعوا في خوف، بينما قالت زوجته ساخرة:

- إنه يخشى أن يوجه لي كلمة واحدة.. ما أطيب قلبه!

ودخل جيم بيته، وتبعته الزوجة حتى بلغا غرفتهما حيث كانت بولي تقدم الشاي لإخوتها، فلما دخلت الأم، نظروا إليها في دهشة وفزع؛ إذ كان شعرها مشعثًا، ووجهها مغطى بالدماء الجافة، كما كانت ملابسها ممزقة، وكانت هناك علامات الخربشات الطويلة وصاحت بولي:

- أوه، ماذا حدث يا أمي؟

فأشارت الأم إلى زوجها وقالت:

- اسألي هذا.. إنه السبب فيما جرى لي.. انظروا يا أولاد إلى أبيكم.. إنه أبوكم الذي تفخرون به.. يترككم تموتون من الجوع لينفق أجره الأسبوعي على فاجرة قذرة.

وكان جيم قد هدأ قليلًا بعد أن تخلص من أعين الناس الذين كانوا يتبعونهما، ولذلك قال لزوجته:

- اسمعي يا امرأة.. إنني لن أحتمل طويلًا لسانكِ السليط، فكوني على حذر.

فقالت له:

- إنني لا أخاف منك. أعرف أنك تريد أن تقتلني، ولكنك سوف تعلق على حبل المشنقة إذا فعلت ذلك.

- كلا، لن أقتلكِ، ولكن إذا لم تكفي عن بذاءتكِ هذه فسوف أضربكِ ضربًا أقسى من القتل.

فصاحت:

- إذا كنت رجلًا فافعل! وحينئذ أرفع أمرك إلى القضاء ليسجنوك بضعة أشهر.

فجمع قبضة يده وضربها في صدرها بقوة وهو يقول:

- قلت لكِ اخرسي!

فأطلقت صرخة مدوية، ثم أمسكت سيخ المدفأة وهجمت عليه فقال لها:

- هكذا؟

ثم انتزع السيخ من يدها وألقى به بعيدًا، وتماسكا على أثر ذلك، ولدقيقة ترنحا من جانب إلى آخر، واستطاع –بجهد شديد – أن يرفعها ثم يلقي بها على الأرض، ولكنها تعلقت به وهي تسقط، فسقط معها، وأطلقت صيحة مدوية عندما ارتطم رأسها بأرض الغرفة، مما جعل الأولاد –الذين كانوا متجمعين خائفين في ركن الغرفة– يصيحون معها أيضًا في رعب وفزع.

وأمسك جيم برأس زوجته وراح يضرب بها الأرض بينما هي تصيح:

- إنه سيقتلني.. النجدة.. النجدة!

وتقدمت بولي في فزع، وحاولت أن تجذبه بعيدًا، وأخذت تقول له وهي تبكي:

- لا يا أبي، بحق السماء لا تضربها.. افعل بها أي شيء إلا الضرب.

- اتركيني! ابتعدي وإلا ضربتك أيضًا.

ولكنها ظلت متشبثة بذراعه، وعندئذ رفع جيم –الذي كان جاثمًا فوق زوجته– ذراعه وضرب ابنته بظاهر كفه، مما جعلها تترنح إلى الخلف وهو يقول:

- خذي هذه!

وانطلقت بولي من الغرفة، وهبطت السلم إلى الفناء الواقع أمام الطابق الأول، حيث رأت رجلين يشربان الشاي مع امرأتين، فهتفت بهما في رجاء:

- أسرعوا.. أوقفوا أبي.. إن أبي سيقتل أمي.

- لماذا؟ ماذا يفعل؟

- إنه يضرب رأسها بالأرض. إنه ينتقم منها لأنها ضربت ليزا كيمب اليوم.

فنهضت إحدى المرأتين وقالت لزوجها:

- أسرع يا جون.. يجب أن نصعد ونوقفه.

فقال الرجل الثاني:

- لا تفعل يا جون، عندما يضرب الرجل زوجته فحذار أن تتدخل.

فقالت بولي في فزع:

- ولكنه سيقتلها.

فقال الرجل ساخرًا:

- قرني! إنه يؤدبها فقط، وربما هي تستحق ما تلقاه.. من يدري؟

وظل جون جالسًا مترددًا ينتقل بنظراته بين صديقه وزوجته وبولي، ثم قالت له هذه بتوسل:

- أسرع يا سيدي، أناشدك الرب أن تسرع لإنقاذ أمي.

وفى تلك اللحظة سمع الجميع صوت شيء يتحطم في الطابق العلوى، أعقبته صيحة نسائية مدوية. وكانت مسز بلاكستون قد أسقطت خزانة موضوعة في الغرفة بما عليها من أدوات أثناء محاولتها التخلص من قبضة زوجها.

فصاحت الزوجة:

- هيا يا جون.

- لا، أنا لن أذهب، فإن بلاكستون قد يغضب فينقلب عليَّ.

فصاحت زوجته باستنكار:

- حسنًا، إنكم مجموعة من الجبناء! هذا كل ما أستطيع قوله. لكن سوف أصعد أنا وأنقذ المرأة. نعم، لا يجوز أن أبقى هنا بينما جريمة قتل تُرتكب فوق رأسي. سأذهب وأوقفه.

وانطلقت المرأة صاعدة، وفتحت الباب على مصراعيه، وهناك رأت جيم جاثمًا فوق زوجته يضربها بعنف، بينما هي تحاول أن تحمي رأسها ووجهها بيديها، وصاحت المرأة محذرة:

- اتركها.

فتطلع إليها جيم وقال لها:

- من أنتِ بحق الشيطان؟

- قلت لك اتركها، ألا تخجل من نفسك وأنت تضرب امرأة بهذه القسوة؟

ثم أمسكت ذراعه بكل قوتها، وأمسكت بقبضته. فقال لها:

- ابتعدي عني وإلا ضربتكِ.

- إنك لا تجرؤ أن تلمسني أيها الجبان القذر! انظر إلى زوجتك المسكينة.. لقد أُغمي عليها.

وتوقف جيم ونظر إلى امرأته للحظات، ثم نهض عنها، وقال وهو يركلها بقدمه:

- انهضي.

ولكنها لم تنهض، وظلت متكورة على نفسها فوق الأرض وهي تتوجع بصوت خافت، فأسرعت إليها امرأة الطابق السفلي وجثت على الأرض بجانبها، وأخذت رأسها بين ذراعيها وهي تقول لها:

- لا عليكِ يامسز بلاكستون، اطمئني.. لن يضع يده عليكِ بعد الآن.. اشربي هذه الجرعة من الماء.

ثم استدارت إلى بلاكستون وأردفت قائلة في ازدراء لا نهائي:

- أيها الكلب الأجرب! لو كنت رجلًا مثلك لعرفت كيف أؤدبك.

وضع جيم قبعته على رأسه، وغادر الغرفة مغلقًا الباب خلفه بعنف، بينما صاحت الجارة تشيعه:

- إلى حيث ألقت!

* * *

ما كادت مسز كيمب والدة ليزا تعود إلى مسكنهما وتفتح الباب، حتى تراجعت للخلف مصدومة لرؤيتها ليزا ممددة على السرير وهي تنشج بالبكاء فصاحت:

- يا إلهي! ماذا بكِ يا ليزا؟

ولم تجب الفتاة على سؤال أمها، وانما ظلت تبكي بحرارة كما لو كان قلبها يتكسر، فاقتربت مسز كيمب منها وقالت وهي تحاول أن تنظر إلى وجهها:

- لا تبكي يا عزيزتي.. أخبريني ماذا حدث؟

ونهضت ليزا وجلست، ثم قالت وهي تمسح دموعها:

- أنا تعيسة للغاية!

- ما هذه الجروح والكدمات التي في وجهكِ..ماذا حدث؟

- لا شيء.

- قرني! هل يعقل أن يصبح وجهكِ هكذا من نفسه؟

فعادت ليزا تبكي، ثم قالت:

- لقد تشاجرت مع إحدى النساء في الشارع.

- يبدو أنها ضربتكِ أكثر مما يجب. انظري إلى وجهكِ.. وانظري إلى عينكِ، حسنًا.. لقد أحضرت معي قطعة من فخذ خروف لطعام الغد ومعها قطعة من الدهن.. اقطعي شريحة من الدهن وضعيها على عينكِ وسوف ترين كيف تُشفى في أقل من ساعة. لقد كنت أستعمل هذه الطريقة كلما تعاركت مع والدك الراحل.

- أوه، إن كل جسمي يؤلمني يا أمي. إن الرجفة تسري بعنف في كياني، وإن الألم يكاد يمزق رأسي.

فأومأت مسز كيمب برأسها وقالت:

- أنا أعرف ماذا يجب أن تفعلي في مثل هذه الحالة، وهذا ما كنت أفعله أيضًا بعد كل معركة مع أبيكِ الراحل.

ثم تناولت من جيبها زجاجة، ورفعت عنها السدادة وشمتها ثم قالت:

- هذا هو الدواء الذي يشفي، إنه الشراب الذي يُزيل عن الجسد الآلام وعن النفس الهموم، لا تقارنيه بالنبيذ، ولا بالبيرة التي أكثرها ماء، إنه ويسكي من أحسن نوع.

ثم قدمت الزجاجة إلى ليزا فشربت منها جرعة، ولما استردتها منها شربت هي الأخرى، ثم لعقت شفتيها وقالت:

- هكذا يكون الشراب! اشربي جرعة أخرى.

فقالت ليزا:

- لا، أنا غير معتادة على شرب هذه الخمر القوية.

وكانت تشعر بالتعاسة والخيبة وتشعر بآلام عنيفة في رأسها، إذا كان فقط يمكنها أن تنسى!

- أنا أعرف أنكِ غير معتادة على هذا النوع من الخمر، ولكن -بارك الرب روحكِ– إنه لن يضركِ، بل سيفيدكِ أحسن ما تكون الفائدة.. نعم.. إنني أهرع إلى هذا الويسكي كلما اضطربت نفسي وازدادت آلامي وتخاذلت قواي، فإذا شربت جرعتين أو ثلاثًا، شعرت كأني خلقت من جديد.

وأخذت ليزا رشفة أخرى، أكبر من الأولى، فكانت تحرق وهي تنزل إلى حلقها، ثم إذا هي تشعر بنوع من الدفء اللذيذ، مسحت عينيها، وقالت وهي تتنهد في ارتياح بعد أن توقف بكائها:

- أشعر بأن هذا الشراب قد أفادني حقًّا.

فقالت مسز كيمب في اعتزاز:

- كنت أعرف أنه سيفعل، خذيها مني كلمة، لو أن كل واحد من الناس يتناول جرعة صغيرة منه في الوقت المناسب لخفت آلام البشرية كثيرًا.

وجلسا فترة في صمت، ثم عادت مسز كيمب تقول:

- ما رأيكِ يا ليزا لو أننا شربنا مزيدًا من الويسكي لهذه المناسبة. إنني أعرف أنك لا تشربين هذا النوع من الخمر القوية، ولهذا لم أحضر معي غير هذه الكمية القليلة التي أوشكت على النفاد، ما دمتِ تشعرين بالألم والحزن فأقترح أن أخرج لأشتري كمية إضافية، وسوف تشعرين بعد أن تشربيها بتحسن كبير.

- لكن.. ليس لدينا زجاجة فارغة لتضعي فيها الشراب.

فأجابت مسز كيمب قائلة:

- نعم، عندنا تلك الزجاجة التي أعطوني فيها الدواء بالمستشفى، وما عليكِ إلا أن تسكبي الدواء في الحوض وتغسليها جيدًا، وسوف أحملها وأشتري الشراب فيها بنفسي.

وعندما بقيت ليزا وحدها في الغرفة، تقلب في ذهنها كل ما حدث.. وكم كان عجبها حين شعرت بأنها لم تعد تشعر بالبؤس والشقاء كما كانت منذ لحظات.. لقد خُيِّل إليها أن كل ما حدث لها كأنما وقع منذ أمد بعيد، وغمغمت قائلة لنفسها: «أيًّا كان الأمر فأنا لن أهتم بعد اليوم بشيء!».

وعادت مسز كيمب تحمل زجاجة الخمر وقالت لها:

- هيا اشربي جرعة أخرى يا ليزا.

- حسنًا، لا مانع! لا بأس إذا سكرت في النهاية.. ليس هناك خطأ في هذا الأمر، لقد سمعت أن الخمر تُنسي الإنسان آلامه وأحزانه.

- صدقت يا ليزا. أنتِ على حق، فأنتِ الآن أحوج ما تكونين إلى هذا النوع من الشراب.. هيه؟ إذَنْ تعاركت مع إحدى النساء في الشارع.. لقد تعاركت بدوري في أيام الشباب، ولكني لم أكن ضئيلة الحجم خائرة القوى مثلك، ليتني كنت معكِ في ساحة المعركة.. إذَنْ لما وقفت مكتوفة اليدين وأنا أرى ابنتي تُضرب وتُركل بهذه القسوة.. صحيح أني في الخامسة والستين من عمري، ولكني ما كنت لأتردد في تهديد هذه المرأة قائلة لها: إذا لمستِ شعرة من رأس ابنتي فسوف أمسح بكِ أرض الشارع. نعم أقسم لكِ أني لم أكن لأتردد في هذا القول.

وبعد أن ملأت كأسها الصغيرة مرة أخرى بالشراب ثم ملأت كأس ليزا عادت تقول:

- ماذا بكِ يا ليزا؟ أنتِ شابة ولكن من الجيل القديم، لماذا لا تشربين كما يجب أن يكون الشراب؟ إني أعجب لكِ. فأنتِ عتيقة التفكير، تخافين من الخمر كما يخاف هؤلاء العجائز المتزمتون. إن الإنسان لا يكون إنسانًا إذا لم يشرب حتى يسكر بين الحين والآخر. إني أفعل هذا ولاسيما إذا اشتدت عليَّ آلام الروماتيزم، ولست أنكر أنكِ كنتِ تشكين من تصرفاتي كلما شربت في أمسيات السبت، ولكن شكواكِ كانت تنبع من تفكير بالٍ عتيق.. اشربي يا فتاتي واسكري واتركي الغد للغد.

فقالت ليزا وهي تملأ الكؤوس:

- نعم.. يا صديقتي القديمة سأشرب.. وأشرب. أنا كأني امرأة جديدة الآن، لقد كنت وقتها كالدهن في النفايات، حسنًا، إنني الآن لا أشعر بشيء، ولا أهتم لشيء حتى لو رموني إلى قاع النهر! وهذه هي الحقيقة.

فقالت الأم الحنون:

- لا تقولي هذا.

وعادت ليزا تقول:

- نعم، سأقول وأعني كل كلمة فيها، إنني لم أعد أشعر كما كنت الآن. إنكِ على حق يا أمي، وعندما يكون الإنسان في مأزق، لا يكون هناك مثل القليل من الخمر.

- حسنًا. ألم أقل لكِ يا ليزا إني خبيرة بهذه الأمور؟ إنني أعاني من الآلام ما يكفي لقتل العديد من النساء الأخريات. حسنًا، وقد كانت الحياة قاسية معي كل القسوة، ولولا هذا الشراب لما تحملت قسوتها. لقد أنجبت ثلاثة عشر طفلًا، وأنتِ طبعًا لا تتصورين ما هناك من آلام في حمل هذا الجيش الصغير من الأبناء وولادتهم، وقد كنت أقول بعد كل ولادة لن أعود لذلك مرة أخرى، ولكني برغم ذلك كنت أعود.. وسوف تدركين هذا كله عندما تتزوجين وتنجبين مثل هذا العدد من الأبناء، لا شك أنك ستكونين مثلي، فخصوبة الأم تنتقل عادة إلى ابنتها، وهذه الخصوبة وراثية في أسرتنا، فقد كانت كل امرأة منا تنجب التوأم إلا عمتك ماري التي أنجبت مرة ثلاثة أطفال قبل أن تتزوج! لذلك لم يُحسبوا!

وعادتا تشربان في صحة كل منهما الأخرى، وبدأ رأس ليزا يدور فتختلط أمام عينيها المرئيات، وتضطرب في ذهنها الأفكار، بينما استطردت أمها قائلة:

- نعم أنجبت ثلاثة عشر ابنًا، وإني فخورة بذلك؛ لأني بهذا أقمت الدليل – كما كان يقول والدك الراحل– على أني إنجليزية صميمة. نعم.. كان الراحل أبوكِ رجلًا عظيمًا ومتحدثًا لبق اللسان وخطيبًا مفوّهًا.. وقد تعود أن يُلقي الخطب في الحفلات الانتخابية لحساب مرشحي البرلمان.. وأعتقد أنه لو عاش حتى الآن لأصبح بدوره عضوًا بمجلس النواب.. نعم.. كنت أقول إن أباكِ الراحل كان يقول لي دائمًا: أنا لا أريد عائلة صغيرة.. بل أريد أكبر عدد من الأبناء لتوطيد دعائم الإمبراطورية! هكذا كان أبوكِ يقول.. لقد كان رجلًا ذا مبادئ مثالية! وكان في الشؤون السياسية يميل إلى المبادئ الراديكالية..

ومن هنا كان يقول لي دائمًا: عندما يجد رجل مثلي نفسه والدًا لثلاثة عشر ابنًا، فمن حقه أن يعتقد أن الدماء البريطانية العريقة تجري في عروقه، وهذه الدماء هي التي دفعت إنجلترا في طريق المجد. ليرحمه الرب، لقد كان يقول لي أيضًا: عندما يفكر الإنسان في اتساع الإمبراطورية الإنجليزية التي لا تغرب عنها الشمس، لا يسعه إلا الشعور بالعزة والكرامة والفخر لأنه واحد من هؤلاء الذين ساهموا في بنائها ولو بطريقة غير مباشرة.. ولهذا يجب على كل مواطن أن ينجب أكبر عدد من الأبناء ليترعرعوا ويحافظوا على أمجاد آبائهم. أتسمعين يا ليزا؟ بارك الرب فيكِ وفى ذكرى أبيكِ، لقد كان رجلًا يعرف كيف يتكلم ببلاغة وطلاقة لسان.

فقالت ليزا وهي تقدم لأمها الزجاجة:

- اشربي يا أمي.. فأنتِ تتكلمين أكثر مما تشربين.. أما أنا فأشرب ولم أعد أهتم بالدنيا وما فيها ومَن فيها! يكفي أني سعيدة ولست أريد أكثر من هذا الشعور بالسعادة.

فنظرت الأم إليها وقالت:

- الآن أستطيع أن أقول إنكِ ابنتي حقًّا.. لقد كنت أشك في هذه الحقيقة من قبل عندما كنتِ تلومينني كلما سكرت.. نعم.. كنت أقول لنفسي: هل هذه هي ابنتي التي حملتها في بطني تسعة أشهر؟ أم أن الممرضة في المستشفى أخطأت وأعطتني ابنة امرأة أخرى، ولكن هذا الاحتمال كان بعيدًا.. فمن الممكن أن يُخدع الرجل ولا يعرف ما إذا كان هذا الطفل ابنه أو ابن شخص آخر، أما الأم فهي تعرف ابنتها بالغريزة لأنها قطعة من جسدها.

وقالت ليزا:

- بدأت أشعر الآن بالنشاط والحيوية، وأكثر من هذا أشعر بالرغبة في الضحك حتى تنشق جوانبي.

ثم بدأت تغني وتردد تلك الأغنية التي كانت شائعة:

«لأنه شاب لطيف ظريف.. لأنه شاب ظريف لطيف».

وكانت ملابسها غير مهندمة، ووجهها مغطى بالجروح الصغيرة وآثار الخمش، وقطرات الدماء متجمدة تحت أنفها، وإحدى عينيها متورمة حتى كادت أن تُغلق، وشعرها متهدل على وجهها وكتفيها، وبرغم هذا، كانت تضحك ببلاهة، وتغني بصوت مترنح ثقيل:

«لا أستطيع يا ديزي أن أشتري لك مركبة بجوادين

ولكنك ستبدين جميلة على دراجة بمقعدين».

وكانت تردد النغمات بصوت مرتفع وهي تضبط الإيقاع بالنقر على المنضدة، ثم بدأت أمها تشترك معها في الغناء بصوتها المتكسر، وهي تبتسم عن فم أدرد ووجه مغضن وشعر رمادي متهدل على كتفها.

«أوه، أيتها العربة الذهبية، أوه!».

وفجأة تحولت ليزا إلى لون من الغناء الحزين، فإذا هي تردد أغنية:

- «لننسَ حبنا القديم..

ولا نذكره أبدًا....».

وأخيرًا خيّم الصمت عليهما، وبدأ رأس مسز كيمب يتثاقل وينحني على صدرها، فنهضت مترنحة إلى السرير، وما لبث شخيرها أن ارتفع.

وبعد لحظات غادرت ليزا مقعدها، وألقت بنفسها على السرير، واستغرقت في النوم.

«إذا كنت أنا سكيرًا شريرًا

فكن أنت رحيمًا غفورًا

واشمل برعايتك هذا القلب المضطرب الحزين

آه يا إلهي! امح من عقلي البكاء والشكوى

وامنحني من خمرك الإلهية ما يزيل من ذاكرتي الآلام

امنحني يا رب خمرك الإلهية!».

* * *

الفصل الثانى عشر

استيقظت ليزا في منتصف الليل وهي تشعر بحرارة في فمها، وجفاف في حلقها، وبألم عميق عنيف في رأسها كلما تحركت، وكانت أمها ترقد بجانبها شبه عارية وقد لفت نفسها بكل أغطية السرير. وارتجفت ليزا من البرد وهي تخلع ثوبها والجاكيت وحذاءها لترتدي ملابس النوم، ثم حاولت أن تظفر بجزء من البطانية حين عادت للرقاد بجوار أمها، ولكن مسز كيمب كانت تغمغم في غضب كلما شعرت بمن يحاول جذب الغطاء عنها. ثم تعود فتُحكم تغطية نفسها به. ولم تجد ليزا بأسًا من الاكتفاء بتغطية نفسها بثوب الخروج والشال الموضوعين في نهاية السرير. ثم حاولت أن تعود إلى النوم.

ولكنها لم تستطع، فقد كانت تشعر بالحرارة المستعرة تلهب يديها ورأسها، والعطش يكاد يفقدها صوابها، فلما حاولت أن تنهض لتحصل على القليل من الماء، شعرت بألم مفاجئ رهيب في رأسها جعلها تسقط على السرير وهي تتأوه وتتوجع، وبقيت هكذا وقلبها ينبض في سرعة، وبدأت تحس بآلام غريبة لم يكن لها عهد بها، تسري في كيانها، ثم إذا بموجة باردة تعصف بها وتكاد تحطم عظامها وتنساب في شرايينها وأوردتها ونخاعها، وتوشك أن تجمد دماءها، وتجعد جلدها، فلم يسعها إلا أن تثني ساقيها وتلصق ركبتيها بصدرها التماسًا للدفء، وهكذا ظلت مكورة على نفسها والشال ملتف بإحكام حولها، وأسنانها تصطك بينما هي تهمس قائلة:

- كم أشعر بالبرد! أمي! أعطني بعض الملابس.. إنني سأموت من البرد إذا تركتني هكذا.. آه.. يا للهول! إنني سأتجمد.

ولكن بعد فترة لم يلبث هذا الشعور بالبرد أن تلاشى، تاركًا المجال لشعور آخر من الحرارة الرهيبة التي جعلت وجهها يتوهج احمرارًا، والعرق يتصبب من كل جسمها، فلم يسعها إلا أن ألقت بكل شيء بعيدًا عنها ثم قالت بصوت مختنق:

- اسقيني يا أمي.. آه.. إني أضحي بأى شيء من أجل قطرة واحدة من الماء.

ولكن لم يسمعها أحد، فقد كانت مسز كيمب مستغرقة في النوم، وكان شخيرها يرتفع بين الحين والآخر. وظلت ليزا هكذا، ترتعد من البرد حينًا، وتلهث أنفاسها من الحمى حينًا آخر، أو تنصت إلى تنفس أمها الرتيب الثقيل. ثم إذا هي تبكي من شدة الألم وتنشب أظافرها في الوسادة التي بجانبها وتقول لنفسها:

«لماذا لا أستطيع أن أنام؟ لماذا لا أستغرق في النوم مثلها؟».

وكان الظلام ثقيلًا رهيبًا واضحًا، وأحست ليزا بالخوف يعتصر قلبها، وراحت تلتمس بعض الشعور بالأمن بأن تنظر إلى البصيص الخافت الذي يتسلل من مصباح الشارع خلال النافذة، وكان يخيل إليها أن الليل لن ينتهي، وأن الدقائق بدت كأنها ساعات، وتعجبت كيف ستتمكن من أن تعيش حتى الصباح وهذه الآلام الغريبة تمزق كيانها.

وظل الليل جاثمًا، والظلام مخيمًا، باردًا رهيبًا، وأمها تغط في النوم وتتنفس بصوت عال بجانبها.. وأخيرًا.. تسلل النوم إلى جفونها مع تباشير الصباح، ولكن عذابها في النوم كان أشد من عذابها في ساعات الأرق. ذلك لأنه كان مصحوبًا بأحلام مضطربة سيئة، فقد خُيِّل إليها أنها لا تزال تتعارك مع غريمتها مسز بلاكستون، وأن هذه الغريمة تكبر وتنمو حتى سدت عليها كل سبل النجاة، فلم يسعها إلا أن تستدير وتجري، وظلت تجري وتجري حتى وجدت نفسها تحاول حل مسألة حسابية كانت مستعصية عليها أثناء عملها في المصنع صباحًا، وبدأت تحاول البحث عن الحل الصحيح، فهي تجمع الأرقام تصاعديًّا وتنازليًّا، وهي تضرب وتجمع وتطرح، وإذا الأرقام تختلط بأشياء أخرى فتعود لحل المسألة من البداية، ودار رأسها، واضطربت أفكارها، ثم إذا هي تستيقظ في النهاية.

وكان الظلام قد أخلى الطريق لفجر رمادي بارد رطب، ووجدت ليزا أن ساقيها عاريتان يكاد البرد يجمدهما، وسمعت أنفاس أمها النائمة المخمورة بجوارها تتردد في رتابة وبطء وحشرجة.

وظلت فترة طويلة وهي تشعر بآلام شديدة وبالمرض وإن كانت أخف من الآلام التي عانتها بالليل، وأخيرًا استيقظت أمها ونادتها:

- ليزا!

فردت عليها بصوت واهن ضعيف:

- نعم يا أمي.

- قومي وأعدي لي قدحًا من الشاي.

- لا أستطيع يا أمي.. إنني مريضة للغاية.

فقالت مسز كيمب في دهشة:

- قرني!

ثم التفتت إليها وأردفت في فزع:

- يا للعجب! ماذا بكِ يا ليزا؟ إن وجهكِ متوهج بالحرارة، وجبينكِ ملتهب، ماذا جرى لكِ يا ابنتي؟

قالت ليزا:

- لا أدري، كنت مريضة طوال الليل حتى ظننت أني سأموت.

فقالت الأم وهي تهز رأسها:

- أنا أعرف السبب. الحقيقة هي أنكِ لم تكوني معتادة على شرب الخمر القوية، ولهذا ساءت حالتك، بينما استيقظت أنا منتعشة كالوردة!.. نعم.. خذيها مني كلمة، هذه بعض مساوئ الامتناع عن الخمر! إن لها لطشة غضب لمن يشربها بعد هجرها فترة طويلة.

قالت مسز كيمب ذلك في لهجة القاضي الذي يقيم الأدلة، ثم نهضت ومضت إلى الزجاجة، فسكبت منها قليلًا من الويسكي في قدح، وأضافت إليه بعض الماء، وقدمتها إلى ليزا قائلة:

- اشربي هذه الجرعة.. إذا أسرف الإنسان في الشرب ليلًا، فعليه أن يشرب في الصباح جرعة ليكون على ما يرام. إنها ستعمل كالسحر.

فقالت ليزا وهي تشيح عنها في نفور واشمئزاز:

- أبعدي هذه الكأس عني.. إن رائحتها تشعرني بالمرض، إنني لن أذوق هذا النوع من الخمر مرة أخرى.

- آه، هذا ما يقوله كل منا حين يصحو في الصباح بصداع في الرأس، ولكننا نعود إليها، ثم لا نستطيع أن نعيش بغيرها.. فأنا مثلًا طوال حياتي....

وليس هناك داع لتكرار ما كررته مسز كيمب.

لزمت ليزا السرير طوال اليوم، ولما جاء توم للسؤال عنها، قيل له إنها في أشد حالات المرض، وتساءلت ليزا في حزن إذ كان هناك شخص آخر سأل عنها.

ثم تنهدت في ألم حين أجابت أمها بـ «لا».

ولكن حالتها الصحية السيئة لم تترك لها مجالًا للتفكير طويلًا في أي شيء، وعاودتها الحمى قبل الغروب، وازدادت آلام رأسها، وعادت أمها من الخارج ثم أوت إلى الفراش بسرعة واستغرقت في النوم تاركة ليزا تعاني وحدها سكرة المرض.

وازدادت آلام المرض إلى حد رهيب وانتشرت في كل جسدها، فكانت الفتاة تكتم أنفاسها حتى لا تنفجر باكية وتوقظ أمها. كانت تنشب أصابعها في ملاءات السرير من شدة الألم، وأخيرًا أعلنت الساعة السادسة صباحًا، وإذا ليزا تفقد كل قدرة على تحمل المزيد من الألم، وإذا هي تطلق صيحة عذاب أيقظت أمها.

مسز كيمب انطلقت إلى إحدى الجارات بالطابق الأعلى، وأيقظت المرأة التي تسكن في الشقة التي فوقها،. ودون تردد وضعت الجارة الطيبة فستانها ونزلت معها، فلما فحصتها قالت في صوت مضطرب:

- إن الحالة خطيرة يا مسز كيمب، ألا يوجد أحد نرسله إلى المستشفى؟

- لا.. لا أعرف أحدًا يمكن أن أرسله إلى المستشفى في مثل هذا الوقت.

- حسنًا، سوف أطلب من زوجي أن يذهب ويستدعي الطبيب فورًا.

ونادت المرأة زوجها، وطلبت منه الإسراع إلى المستشفى، وكانت هذه الجارة تدعى مسز هودجز، قوية الذراعين، قوية الملامح، متوسطة العمر،

وقد قالت لمسز كيمب:

- أنتِ محظوظة أنك أتيت لي.. فأنتِ تعرفين أنني أعمل بالتمريض، ولذلك فأنا خبيرة بهذه الأمور.

فقالت مسز كيمب:

- حسنًا، أنتِ فاجأتني، فأنا لم أكن أعرف أن ليزا في هذه الحالة، فإنها لم تخبرني أي شيء عن ذلك.

- هل تعرفين من فعل هذا؟

وأجابت مسز كيمب:

- أنتِ تسأليننني الآن عن شيء لا أعرفه، لكني الآن يجب أن أفكر فيه، لا بد أنه توم، فقد كان دائمًا في صحبة ليزا، وهو شاب أعزب، لذلك يمكنهما الزواج، هذا كل شيء.

قالت ليزا بضعف:

- إنه ليس توم.

- لا، إذَنْ من هو؟

ولم تجب ليزا. وكررت الأم:

- إيه؟ من هو؟

واستلقت ليزا دون أن تتكلم.

وقالت مسز هودجز:

- لا تهتمي يا مسز كيمب. لا داعي للقلق الآن، ستتمكنين من اكتشاف كل شيء عندما تتحسن.

ولفترة خيم الصمت بينما ظلت المرأتان جالستين في انتظار مجيء الطبيب، وكانت ليزا مستلقية تنظر إلى جدار الغرفة في ذهول وشرود وأنفاسها تلهث.. وكان طيف جيم يخطر بذهنها أحيانًا فتفتح فمها لتناديه، ولكنها في يأسها لا تلبث أن تكبت مشاعرها.

وأخيرًا جاء الطبيب، وقالت له مسز هودجز في قلق:

- هل تعتقد أن الحالة خطيرة يا دكتور؟

أجابها:

- نعم.. أخشى أن الأمر خطير جدًّا.. سوف أعود لفحصها هذا المساء.

وقالت مسز كيمب عندما همّ الطبيب بالانصراف:

- أوه، سيدي الطبيب. ألا يمكن أن تصف لي شيئًا يخفف عني آلام الروماتيزم؟ إنني أعاني من الروماتيزم، ولا أكاد أعرف في هذه الأيام الباردة ماذا أفعل لنفسي، ثم هل يمكن يا دكتور أن تكتب لي تقريرًا للحصول على إعانة مؤقتة فزوجي متوفٍّ.. وها هي ذي ابنتي مريضة، وأنا امرأة عجوز لا أستطيع أن أعمل، وحالتنا المادية صعبة.

ومر اليوم، وفى المساء، هبطت مسز هودجز التي كانت مشغولة بشؤونها المنزلية إلى غرفة ليزا، فوجدت مسز كيمب مستغرقة في النوم على السرير، ولكنها استيقظت عند دخولها وقالت لها:

- لقد أخذت غفوة قصيرة فقط.

سألت السيدة:

- كيف حال الفتاة الآن؟

وأجابت مسز كيمب:

- أوه، لقد اشتدت عليَّ آلام الروماتيزم حتى كادت تفقدني صوابي، وقد ازدادت الآلام لأن ليزا مريضة لا تستطيع أن تدلك ساقيّ بزيت الكافور كالمعتاد. من سوء الحظ أن تمرض ليزا في الوقت الذي أنا محتاجة فيه إلى مزيد من الرعاية، ولكنه سوء الحظ الذي يلازمني دائمًا.

وتقدمت مسز هودجز من السرير ونظرت إلى ليزا التي ظلت راقدة كما كانت منذ الصباح، وكان وجهها ملتهبًا بالاحمرار، وفمها مفتوحًا للتنفس، وحبات العرق تتألق على جبينها.

سألت مسز هودجز:

- كيف حالك الآن يا عزيزتي؟

ولكن ليزا لم تجب.

وقالت مسز كيمب:

- أعتقد أنها غائبة عن الوعي. لقد كنت أسألها عن من فعل هذا، ولكن كان من الواضح أنها لا تسمع ما أقول، لقد كانت صدمة عظيمة لي يا مسز هودجز.

رددت المرأة بتعاطف:

- أنا أصدقك.

- حسنًا، عندما حضرتِ وأخبرتني ما بها، فكأنك أطلقت عليَّ سهمًا، أنا لا أعرف أكثر من الموتى عما يكون قد حدث.

فقالت مسز هودجز وهي تهز رأسها:

- لقد رأيت مرة هذه الحالة.

- نعم، بالطبع، كنت أتوقع أن لكِ خبرة كبيرة في التعامل من حالة إلى أخرى.

- أنتِ محقة يا مسز كيمب، أنتِ محقة، أنا أعمل في هذه الوظيفة منذ اثنتي عشرة سنة تقريبًا، ولا يمكن ألا أعرف كل شيء عنها.

- وهل يدفعون جيدًا؟

- حسنًا، مسز كيمب، نحن الكل في الكل، وليس عندي أسباب للشكوى، لقد تعودت أن أطلب خمسة شلنات، وسأبقى هكذا، ولا أظن أنه يعتبر كثيرًا بالنسبة لما أقوم به.

وانتشرت أخبار مرض ليزا في الشارع بسرعة، وأخذ الجيران يفدون بين الحين والآخر للسؤال عنها.. وبينما كانت المرأتان تتحدثان، إذا بطرق خفيف على الباب، فلما فتحته مسز هودجز رأت توم واقفًا على العتبة يستأذن في الدخول، فقالت له مسز كيمب:

- نعم.. يمكنك أن تدخل.

ودخل توم على أطراف قدميه بحرص، حتى لا يحدث أي ضوضاء، ثم وقف لفترة بجوار السرير ينظر إلى ليزا في صمت، ثم همس لمسز هودجز التي تقف بجواره:

- هل أستطيع أن أتكلم معها؟

- لا يمكنها أن تسمعك.

وتأوه الشاب في حزن مرير، ثم عاد يهمس:

- هل تعتقدين أنها ستكون بخير؟

فهزت المرأة كتفيها، وقالت في حذر:

- لا أستطيع أن أجزم بشيء.

وانحنى توم –بوجه مضرج من الخجل– وقبّل وجه ليزا، ثم استدار وغادر الغرفة في صمت وسكون.

وقالت مسز كيمب بعد خروجه وهي تشير له بسبابتها:

- هذا هو الشاب الذي كان يريد الزواج من ليزا.

ثم جاء الطبيب بعد قليل... وقالت له مسز هودجز وهي تشير من موقع سلطتها كقابلة وممرضة:

- ما رأيك يا دكتور؟

- أخشى أن حالتها تزداد سوءًا.

فهمهمت المرأة قائلة بصوت هامس:

- هل تعتقد أنها.. ستموت؟

- أخشى هذا.

وبينما كان الطبيب يجلس على مقعد بجانب السرير، استدارت مسز هودجز إلى مسز كيمب وأومأت لها برأسها، وأدركت الأم معنى الإشارة، فوضعت المنديل على عينيها، ثم استدارت وخرجت إلى بعض الجيران المجتمعين خارج البيت، كان توم بينهم.

فلما سألوها:

- ماذا قال الطبيب؟

قالت:

- لقد أكد الطبيب ما كنت أتوقعه.. أنا أعرف أنها لن تعيش!

فانفجر توم يبكي وأجهش قائلًا:

- آه يا ليزا.

وقالت إحدى النساء بعد عودة مسز كيمب إلى بيتها:

- إن مسز هودجز امرأة بارعة! كما أظن.

وقالت امرأة أخرى:

- نعم.. لقد ولدت آخر مرة على يديها، ولم أشعر بأي آلام.. إن مسز هودجز في رأيي أفضل من أربعين طبيبًا.

- لو أردت الحقيقة فإن مسز هودجز لا تخطئ في عملها أبدًا.

وكانت مسز هودجز في تلك اللحظة جالسة بجوار مسز كيمب تواسيها وتقول لها:

- لماذا لا تشربين القليل من البراندي يا مسز كيمب لتهدئي أعصابكِ؟ أنتِ الآن تحتاجينه.

- أنا أشعر بالإغماء يدب في جسمي، وأعتقد أن قليلًا من الويسكي يصلح شأني في أقل من غمضة عين!

فوضعت مسز هودجز يدها على ذراع مسز كيمب وقالت لها:

- لا يا مسز كيمب، إذا كنتِ تشعرين بمثل هذا الاضطراب فليس كالبراندي مهدئًا للأعصاب، هذه نصيحة أقدمها لكِ عن خبرة وتجربة، أنا لا أعترض على الويسكي بنفسي، أما البراندي فليس مثله شيء للتخفيف عن الأعصاب المتوترة.

- حسنًا، إني لا أستطيع أن أعترض على رأي خبيرة مثلكِ يا مسز هودجز، سوف أفعل ما تعتقدين أنه الصواب.

وتصادف أن كان في الغرفة زجاجة بها القليل، فنهضت مسز كيمب إليها، وسكبت منها في كأسين، فقدمت إحداهما لمسز هودجز فأخذتها قائلة بلهجة اعتذار:

- أنا لم أتعود أن أشرب أثناء انشغالي في العمل، ولكني سأشرب إكرامًا لكِ فقط.

- فى صحتكِ يا مسز هودجز.

- فى صحتكِ يا مسز كيمب.. وشكرًا لكِ.

وكانت ليزا راقدة في صمت وسكون، تتنفس في بطء، وقد أغمضت عينيها، بينما ظل الطبيب ممسكًا بمعصمها لقياس النبض. وعادت مسز هودجز تقول وهي تلعق شفتيها:

- لقد تخلى الحظ عني في هذه الأيام! فهذه حالة الوفاة الثانية التي تحدث معي خلال الأيام العشرة الأخيرة، وأنا أقصد النساء بالطبع..أما الأطفال فأنا لا أعدهم.

- لا تقولي هذا.

- بالطبع، إن الأولى، حسنًا، كانت امرأة مومس، ولهذا لم أهتم بموتها، فهي ليست كغيرها من النساء، أليس كذلك؟

- لا، أنتِ على حق.

- ومع ذلك فأنا لا أحب أن يموت أحد بين يديّ، مومس أو غير مومس، فالواجب أن يكون الإنسان رفيقًا مع الجميع.

فقالت مسز كيمب:

- يبدو أنكِ طيبة القلب جدًّا يا مسز هودجز.

- نعم.. إن لي قلبًا رحيمًا، وفى أحيان كثيرة كنت أتمنى لو لم يكن لي مثل هذا القلب، لأن طبيعة عملي تحتاج إلى جمود العاطفة، وعلى كل حال يكفيني أن أؤدي عملي دائمًا بطريقة مُرضية وهذا ما لا تستطيع إلا أن تقوله كل النساء في منطقتي.

وبعد فترة من الاستغراق في شرب البراندي، عادت مسز كيمب تقول وهي تعود إلى الموضوع:

- إنني الآن في محنة كبيرة ما كان يجب أن تحدث لي يا مسز هودجز، فقد انحدرت من أسرة محترمة لم يحدث بين أفرادها شيء من هذا القبيل، نعم يا مسز هودجز.. فأنا تزوجت أباها في الكنيسة، وما زلت أحتفظ بقسيمة الزواج الذي تم في الكنيسة طبقًا للتقاليد الدينية والقواعد المتبعة، فكيف ترتكب

ابنتي مثل هذا الإثم؟ إنني لا أفهم! لقد بذلت جهدي في تعليمها وتهذيبها، وقد أجهدت نفسي لأهيئ لها حياة منزلية مريحة، وحرصت على أن أحقق لها كل ما تهفو إليه نفسها! وأنتِ تعرفين يا مسز هودجز أننى أبليت عظامي في الخدمة لأعد لها حياة مترفة فاخرة، وفى النهاية تجرسني بالعار بهذا الشكل!

- أنا أفهم وأقدر موقفكِ يا مسز كيمب.

- أؤكد لكِ أن أسرتي محترمة جدًّا، فقد كان زوجي الراحل يكسب في الأسبوع الواحد خمسة وعشرين شلنًا، وقد ظل في عمله سبعة عشر عامًا، فلما مات، أرسل زملاؤه باقة زهور ضخمة لتوضع على نعشه، وقد قالوا لي إنهم لم يروا في حياتهم رجلًا في مثل براعته وأمانته وإخلاصه في العمل، وأنا يا مسز هودجز، أستطيع أن أقول بضمير مستريح إنني كنت القدوة الحسنة لها.. لقد أديت واجبي نحو الفتاة وهي لم تتعلم مني أبدًا إلا الأشياء الطيبة، ولا أنكر طبعًا أنني لم أكن دائمًا في سعة مادية، وإنما أستطيع القول بأني كنت القدوة الحسنة والمثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه الأم، ولو كان في استطاعتها الكلام الآن لأكدت لكِ هذه الحقيقة.

وتوقفت مسز كيمب عن الكلام لفترة، ثم قالت بعد لحظة تفكير:

- كما يقول الكتاب المقدس، إن ما حدث يكفي لأن يضع شعري الأشيب في الوحل من شدة الحزن. إني على استعداد لأن أطلعكِ على قسيمة زواجي.. نعم.. حقًّا ما كان ينبغي لي أن أكثر من الكلام في هذا الموضوع وهي في هذه الحالة، ولكنها إذا تحسنت فسوف أقول لها هذا الكلام.

وعندئذ سمعت طرقات أخرى على الباب فأردفت قائلة:

- أرجو أن تذهبي وتفتحي الباب؛ لأن مفاصلي تؤلمني بسبب الروماتيزم.

وفتحت مسز هودجز الباب.. ودخل جيم.

كان وجهه شديد الشحوب، وقد تضاد شحوب الموتى هذا مع سواد شعر رأسه ولحيته، ولذلك بدا مروعًا، فلا عجب أن تراجعت مسز هودجز وهي تقول لمسز كيمب:

- من هذا؟

وأزاحها جيم من طريقه، ومشى نحو السرير حيث سأل الطبيب:

- هل حالتها خطيرة يا دكتور؟

فلما نظر الطبيب إليه متسائلًا، همس له جيم قائلًا:

- أنا الرجل الذي كان السبب فيما أصابها، هل ستموت؟

فأومأ الطبيب برأسه، وعندئذ هتف جيم بألم عميق:

- يا إلهي! لقد كنت أنا السبب.. ماذا أفعل؟ لقد كان خطئي، ليتني أموت.

وأخذ جيم رأس الفتاة بين يديه، وانفجرت الدموع من عينيه وهو يقول:

- إنها لم تمت بعد، أليس كذلك؟

قال الطبيب:

- إنها في لحظاتها الأخيرة.

فركع جيم وهو يقول بصوت ينزف بالحسرة والألم:

- ليزا.. ليزا.. تكلمي يا ليزا.. قولي إنكِ سامحتني!.. أوه، تكلمي معي.

وقال له الطبيب:

- إنها لا تسمعك.

- أوه، بل يجب أن تسمعني.. ليزا.. ليزا!

وركع على ركبتيه بجوار السرير.

وخيم الصمت فجأة على الجميع، وظلت ليزا راقدة في سكون لا يكاد صدرها يتحرك مع أنفاسها الواهنة. وكان جيم يحدّق في وجهها بأعين باكية، والطبيب يضع أصبعه على معصمها، والمرأتان تنظران إلى جيم! وأخيرًا همست مسز كيمب قائلة:

- من كان يصدق أن هذا هو الرجل؟ يا للحظ! ما أعجب شكله!

وقالت القابلة بعد أن شعرت بوطأة السكون:

- هل أمَّنت على حياتها يا مسز كيمب؟

وأجابت السيدة الطيبة:

- نعم.. بلا شك.. لقد أمنت على حياتها منذ اليوم الأول لولادتها، ومنذ يومين فقط كنت أفكر وأقول لنفسي يا لضيعة هذا المال كله الذي دفعته للتأمين على حياتها.. ولكن.. انظري.. إن الإنسان لا يعرف متى يأتي إليه الحظ، فلا شك أني سأقبض مبلغ التأمين كله مع الفوائد!

- أنتِ على حق يا مسز كيمب، فأنا أيضًا شغوفة بالتأمين، مدركة لفوائده، إنه أمر عظيم، وقد أمنت على حياة أولادي جميعًا.

- بهذه المناسبة.. إن شعاري الذي لا أحيد عنه ألا أدخر وسعًا في عمل جنازة فاخرة لكل ابن يموت! فمهما يكن الطفل منهم متعبًا في حياته أحيانًا، فالواجب ألا نبخل عليه بالمال عندما يموت.

وسألتها مسز هودجز:

- هل تتعاملين مع مستر ستيرمان الحانوتي؟

- لا يا مسز هودجز، إنني لا أختار بديلًا عن مستر فوتلي في مسألة الدفن، فليس له مثيل في هذا العمل.

- حسنًا.. هذا غريب جدًّا الآن، فهذا ما كنت أفكر فيه للتو، أنا أتفق معكِ في هذا الرأي.. إن مستر فوتلي يؤدي عمله دائمًا بطريقة مرضية.. إنني عميلة قديمة له.. وهو لذلك يحاسبني أرخص من أي أحد آخر.

- أحقًّا يا مسز هودجز؟ إذَنْ أرجو أن تتكرمي إذا كنت لا أثقل عليكِ وتتفقي معه على عمل الترتيبات اللازمة لجنازة ليزا!

- لماذا، بالتأكيد، يا مسز كيمب، إنني لا أتردد في إسداء مثل هذه الخدمة لأي إنسان إذا استطعت.

فقالت مسز كيمب:

- أنا أريد أن تكون جنازة محترمة للغاية.. فلن أبخل بأي مبلغ لتكون جنازة ابنتي لائقة بها. أنا أحب الأعمدة، كما تعرفين، على الرغم من أنها تبدو غالية قليلًا.

- اطمئني يا مسز كيمب، فسوف يتم كل شيء كما لو كانت لزوجي أنا، ويمكني أن أقول بالإضافة إلى هذا، إن مستر فوتلي يقدر جهودي كل التقدير،

فمنذ يومين فقط ذهبت إلى محله فقال لي: صباح الخير يا مسز هودجز. فقلت له: صباح الخير يا مستر فوتلي، فقال لي وهو يشير إلى رجل كان واقفًا معه: لقد جئت في الوقت المناسب يا مسز هودجز.. فقد كنت أتناقش مع هذا السيد في موضوع هام، ولا بأس بأن نحتكم إلى رأيكِ، فأنتِ امرأة ذكية للغاية. فقلت له: هذه حقيقة يعرفها عني الجميع. فقال لي: ثم إنكِ عميلة قديمة لي. فقلت له: نعم.. فإني أساهم في رواج عملك مساهمة فعالة. فقال لي: هذه حقيقة لا أنكرها، والآن يا مسز هودجز أيهما أفضل وأجمل في صناعة التوابيت، خشب السنديان أم خشب الصنوبر؟ هذا هو موضوع المناقشة بيني وبين هذا السيد. فقلت له: حسنًا يا مستر فوتلي. إذا أردت أن تعرف رأيي الخاص، فأنا لا أجد أفضل من خشب السنديان في صناعة التوابيت ذات المقابض النحاسية في الجوانب والوسط. فقال لي: هذا هو عين الصواب وأنا شخصيًّا قد أوصيت بأن أدفن في تابوت من خشب السنديان عندما يحين الأجل. فقلت له: آمين!

وعندئذ قالت مسز كيمب:

- أنا أيضًا أفضل خشب السنديان على أي خشب آخر لصناعة التوابيت، فقد أعددت لزوجي المسكين تابوتًا من هذا النوع، وأذكر أننا بذلنا جهدًا كبيرًا لوضعه في التابوت، فقد كان مريضًا بالاستسقاء كما تعرفين، وكان جسمه قد تورم وانتفخ إلى حد أن أمه ما كانت لتعرفه لو أنها رأته.. نعم.. لقد تضخمت كل ساق من ساقيه حتى أصبحت في حجم الجسم البشري.. نعم..

فقالت مسز هودجز في دهشة:

- إلى هذا الحد ؟

- نعم، وعندما مات، لم أكن أتعامل مع مستر فوتلي، لم أكن أقيم هنا يومذاك، إنما كنت مقيمة بضاحية باترسيا، وكان لحادنا هو مستر براوننج، وقد أرسل إلينا مستر براوننج هذا تابوتًا كبيرًا، واستطعنا أن نضع فيه جثة زوجي بعد الجهد والمشقة، ولكننا لم نستطع أن نُحكم الغطاء عليه بسبب تورم جسمه، وقد كان مستر براوننج رجلًا ضخم الجسم أيضًا يزيد وزنه على

ثلاثمائة رطل، ولذلك صعد على غطاء التابوت مع شاب، وراحا يقفزان عليه كي تُحكم إغلاقه، ولكن الغطاء رفض أن ينزل، فطلب مني مستر براوننج أن أصعد معه فوق الغطاء وأضغط بقدميّ عليه، وكنت طبعًا في ملابس الحداد، ولكن لم يسعني إلا أن أفعل حتى ننتهي من هذا الموضوع، وهكذا ظللنا نتواثب على غطاء التابوت حتى أحكمنا إغلاقه! إنني لا أنسى هذا!

وعاد الصمت يخيم على الغرفة، وساد في جوها ذلك السكون العميق البارد الرهيب، سكون الموت عندما يرفرف في الجو! وشعر الجميع بحضوره معهم في الغرفة، ولذلك لم يجرؤ أحد على الحركة أو الهمس، بل لم يجرؤ أحد حتى على التنفس بصوت مسموع!

كان الصمت حقًّا رهيبًا.

وفجأة قطعت الصمت زفرة.. حشرجة موت عالية.. وكانت صادرة من الفراش، ثم سرت في جو الغرفة ممزقة سكونها الجاثم الرهيب.

وفتح الطبيب إحدى عيني ليزا ولمسها، ثم وضع يدها التي كان ممسكًا بها على صدرها، وسحب الملاءة على رأسها.

واستدار جيم وقد بدت في وجهه أمارات اليأس المرير، وشرعت المرأتان تبكيان في صمت.

وبدأ الليل يخلي سبيله لتباشير الفجر. وتسلل خيط رفيع من الضوء الرمادي من خلال النافذة.

وانطفأ المصباح.

(تمت)

* * *